وزارة المعارف العمومية



لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى

حققه وعلق حواشيه

الدكتور طه حسين بك و عبد الحميد العبادى

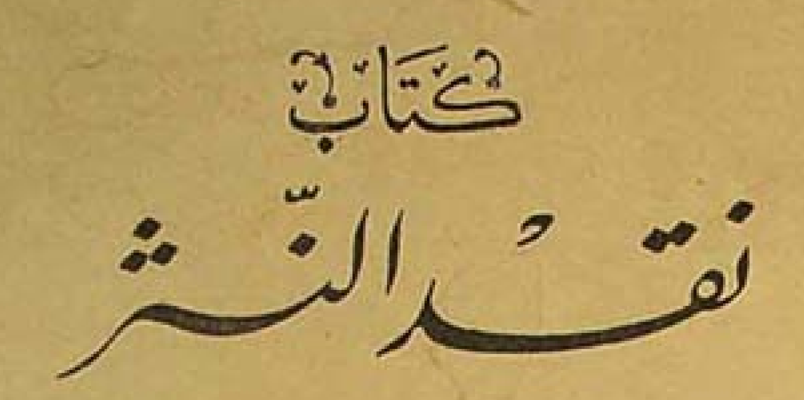
الأستاذان بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٤١

وزارة المعارف العمومية



لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى

حققه وعلق حواشيه

الدكتور طه حسين بك و عبد الحميد العبادى

الأستاذان بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٤١

نقـد النثر

أو

كتاب البيان



بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم . إن أولى ما افتتح به[١] اللبيب كتابه ، وابتدأ به الأديب خطابه ، ما افتتح الله به القرآن ، وجعله آخر دعوى أهل الإيمان . فالحمد لله شكراً لنعمته ، واعترافا بمنته . وصلى الله على محمد وعترته[٢] ، والأخيار من ذريته .

وأما بعد ، فإنك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجاحظ[٣] الذى سماه "كتاب البيان والتبيين" ، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً متنخلة[٤] وخطبا منتخبة ، ولم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ؛ وكان عندما وقفت عليه ، غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب إليه . وسألتنى أن أذكر لك جملاً من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدى معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه ؛ وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول له الكتاب ، فقد قيل "إن الإطالة أكثر أسباب الملالة" ؛ فتثاقلت عن إجابتك إلى ما سألت ، لما قد حَذَّرتْ منه وجهرت عنه العلماء من التعرض لوضع الكتب ، إذ كانت نتائج اللب ، وكان المتجاسر على تأليفها إنما يبدى صفحة عقله ، ويبين عن مقدار علمه وجهله . ثم رأيت حق

---

(١) فى الأصل : "له" .

(٢) عِترة الرجل نسله ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر .

(٣) هو الأديب البصرى الكبير والمتكلم المعتزلى الشهير وله من التصانيف الحسان كتاب "الحيوان" وكتاب "البيان والتبيين" توفى عام ٢٥٥ هـ وقد نيف على التسعين .

(٤) مختارة .

الصديق عند العلماء فوق حق الشقيق ؛ ووجدتهم يجعلون الإخوان من عُدَد الزمان ، فقال على عليه السلام : "المرء كثير بإخوانه" وسئل بعضهم فقيل له : أيما أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : "إنما أحب أخى إذا كان صديق" . وقال قائلهم : "الإخاء الصادق أقرب من النسب الشابك[1]" وقال بعض الفلاسفة : "الأصدقاء نفس واحدة فى أجساد متفرقة" . وقال على رضوان الله عليه : "ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الشجاع إلا عند الحرب ، ولا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا يعرف الصديق إلا عند الحاجة" . فلما تذكرت ذلك وتدبرته تحملت لك تأليف ما أحببته ورسمته ، على علم منى بأن[2] كتابى لابد أن [٢] يقع فى يد أحد رجلين : إما عاقل يعلم أن الصواب قصدى والحق إرادتى ، وأن نية الرجل أولى به من عمله ، فيتغمد سهواً إن وقع منى ، و يغتفر زللاً إن صدر عنى ، و يعود بفضل حلمه على زللى ، و يصلح بعمله خطئى ، فقد وجب ذلك عليه لى ، لاعترافى قبل اقترافى ، و إقرارى بالتقصير الذى رُكِّب فى جبلّة[3] مثلى . و إما جاهل أحبّ الأشياء إليه عيب ذوى الأدب والتسرع إلى تهجينهم وذكر مساويهم ، وذلك لمنافرته إياهم و بعد شكله من أشكالهم ؛ ومن أراد عيباً وجده ، ومن فحص عن عثرة لم يعدَمها . وكان يقال : "من حسد إنسانا اغتابه ، ومن قصّر عن شيء عابه" . ولذلك قيل : "من جهل شيئاً عاداه" . وقال على رضوان الله عليه : "عداوة الجاهل للعلم على قدر قلة انتفاعه به" . وقال الشاعر :

---

(١) المتداخل ، ويقال بينهما شبكة بالضم أى قرابة .

(٢) فى الأصل ، "فان" .

(٣) الطبيعة والخلقة .

وأسرع ما علمت بظهر غيب   على عيب الرجال ذوو العيوب

ويروى :

وأسرع ما علمت بظهر غيب   إلى ذكر العيوب ذوو العيوب

فمن كانت هذه حاله ، كان اللبيب حقيقاً بترك الحفل به ، وقلة الاكتراث له .

وقد ذكرت فى كتابى هذا جملا من أقسام البيان ، وفقراً من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه ، ليخفّ بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه . وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

وأما بعد ، فإن الله خلق الإنسان وفضّله على سائر الحيوان ، وأنطق بذلك القرآن فقال عز وجل[1] : "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا[2]" وإنما فضله على سائر أهل جنسه بالعقل الذى فرق به[3] بين

(١) أورد المؤلف كثيراً من الآيات القرآنية فى أثناء هذا الكتاب فوجدنا فيه بعض التحريف فأثبتناه كما هو وارد فى المصحف الشريف من غير تنبيه على مواضع التحريف .

(٢) سورة الأسراء .

(٣) فى الأصل : "الذى به فرق به" بتكرار "به" .

الخير والشر ، والنفع والضر ، وأدرك به ما غاب عنه وبعد منه . والدليل على أن الله عز وجل إنما فضل الانسان بالعقل دون غيره ، أنه لم يخاطب إلا من صح عقله ، واعتدل تميزه ، ولا جعل الثواب والعقاب إلا لهم ؛ [٢م] ووضع التكليف عن غيرهم من الأطفال الذين لم يكمل تمييزهم ، والمجانين الذين فقدوا عقولهم . فالعقل حجة الله على خلقه ، والدليل لهم إلى معرفته ، والسبيل إلى نيل رحمته ، وقد أتت الرواية "إن الله عز وجل لما خلق الخلق ثم العقل بعدهم ، استنطقه ثم قال : أقبل ! فاقبل ، ثم قال له : أدبر ! فأدبر ، فقال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً هو أحب إلىَّ منك ، ولا أكملتك إلا فيمن أُحب ، أَمَا إنى إياك آمر وأنهى ، وإياك أُعاقب وأُثيب ، وبك آخذ ، وبك أُعطى". وروى عن أبى عبد الله[1] عليه السلام أنه قال لهشام : "ياهشام ! إن لله حُجتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة ؛ فأما الظاهرة فالرسل ، وأما الباطنة فالعقل". وعنه عليه السلام أنه قال : "حجة الله على العباد النبي ، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل". ولولا العقل الذى بان به ذوو التميز من ذوى الجهل ، لما كان بين الإنسان وبين سائر الحيوان فرق فى تولد ولا نمو ، ولا حركة ولا هدو ، ولا أكل ولا شرب ؛ لأن سائر البهائم شركاؤه فى ذلك ، فبالعقل إذاً تنال الفضيلة ، وهو عند الله أقرب وسيلة .

(١) هى هنا كنية جعفر الصادق ؛ وهو الإمام السادس من أئمة الشيعة الإمامية ، المتوفى عام ١٤٨ هـ . وهشام المذكور بعد فى المتن هو هشام بن سالم ، وكان من وجوه أصحاب الإمام جعفر الصادق . (كتاب « فرق الشيعة » للنوبختى ص ٦٦) .

باب قسمة العقل

والعقل ينقسم قسمين : موهوب ، ومكسوب فالموهوب : ما جعله الله فى جبلة خلقه ، وهو الذى ذكره فى كتابه حيث يقول : "والله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١)" وقد فضل الله فى هذه الموهبة بعض خلقه على بعض على مقدار علمه فيهم كما فضل بعضهم على بعض فى سائر أخلاقهم وأفعالهم ، فقال : "نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٢)" . وإنما فعل الله ذلك لمصلحة لهم . ونحن نبين الصلاح فى ذلك ووصفه فيما نستأنف من كتابنا هذا إذا صرنا إليه .

[٢] والمكسوب : ما أفاده الإنسان بالتجربة والعبر ، وبالأدب والنظر ؛ وهو الذى ندب الله عز وجل إليه فقال : "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٣)" وجعل من أعطاه العقل الغريزى ثم أهمله وترك شحذه بالأدب والتفكير والتمييز والتدبر كالأنعام ، وعرفنا أن مصيرهم إلى النار ، فقال : "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

---

(١) سورة النحل .

(٢) سورة الزخرف .

(٣) سورة الحج .

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [١] ".
إلا أن العقل الموهوب أصل — والموهوب القطب — والمكسوب فرع .
والأشياء بأصولها ، فاذا صح الأصل صح الفرع ، وإذا فسد فسد . وقد شبه
بعض القدماء العقل الغريزى بالبدن وشبه المكتسب بالغذاء ، فكما أن
الغذاء لايستحيل إلا بالأبدان المحيلة له ، ولاينفع إلا بحصوله فيها ، فكذلك
العقل المستفاد بالأدب لا يتم إلا بالعقل الغريزى ؛ وكما أن البدن إذا عدم
الغذاء لم يكن له بقاء ، فكذلك العقل الغريزى إذا عدم الأدب . وإذا صح
العقل الموهوب كان بمنزلة الصحيح الذى يستمرئ الغذاء [٢] وينتفع به .
وإذا فسد كان بمنزلة البدن المريض الذى لايشتهى الغذاء ، وإن حمل منه
عليه مالا تدعوه طبيعته إليه كان زائدا فى مرضه واستحال إلى الداء الذى
هو الغالب عليه . ولذلك قيل : " إن الأدب يذهب عن العاقل السكر
ويزيد الأحمق سكرا " . وقال الله عز وجل : " قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى
وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ " [٣] . وأحمد الناس عند الحكماء أصحهم عقلا وعلما وأدبا .
وقد قال الله عز وجل : " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ " [٤] . وقال : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ " [٥] . وقال : " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) سورة الأعراف ، وذرأنا خلقنا

(٢) يجده هنيئا حميد المغبة .

(٣) سورة فصلت .

(٤) سورة الأنفال .

(٥) سورة الزمر .

[٢ م]

درجات"(١) . وأخبر بعاقبة من أهمل نفسه وضيع عقله ، فقال عز وجل : " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ "(٢) فمن لم يتفكر بقلبه وينظر بعقله ، لم ينتفع بهذا الجوهر الشريف الذى وهبه الله عز وجل له . وإلى التفكير ندب(٣) الله عباده . وبالاعتبار أمرهم فقال : " أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ " الآية(٤) . " أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ "(٥) وقال : " فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ "(٦) . وقال " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ "(٧) ، وروى فى الخبر : "فكرة ساعة خير من عبادة سنة". وروى عن الصادق(٨) عليه السلام فى كلام له : " ولكل شىء دليل ، ودليل العقل الفكر ، ودليل الفكر الصمت" : فبالفكر والاعتبار ، يتقى الزلل والعثار ، وبالتجارب تعرف العواقب وتدفع النوائب . فاذا تفكر الإنسان وتدبر ، ونظر واعتبر ، وقاس ما يدله عليه فكره بما جربه هو ومن قبله ، تبين له ما يريد أن يتبينه وظهر له معناه وحقيقته . وقد ذكر الله عز وجل البيان وامتدحه وامتدح بأنه علمه الإنسان ، فقال عز وجل : " الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ

---

(١) سورة المجادلة .

(٢) سورة الملك .

(٣) ندبه الى الأمر كنصره دعاه وحثه .

(٤) سورة الروم .

(٥) سورة الأعراف . والجنة بكسر الجيم : الجنون .

(٦) سورة الحشر .

(٧) سورة النساء .

(٨) هو جعفر الصادق السادس الإمام من أئمة الشيعة الاثنى عشرة .

البَيَانَ "(١) . وجعله (أعنى كتابه) ، تبيانا لكل شيء وجعله قرآنا ، وجعل رسله مبينين لخلقه ، فقال عز وجل : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ "(٢) . وقال : " الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ "(٣) . وقال : " أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ "(٤) .

باب فيه ذكر وجوه البيان

والبيان على أربعة أوجه : فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تُبن بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، ومنه البيان الذى هو نطق باللسان ، ومنه البيان بالكتاب الذى يبلغ مَن بَعُدَ أو غاب .

فالأشياء تبين للناظر المتوسم والعاقل المتبين بذواتها و بعجيب تركيب الله فيها وآثار صنعته فى ظاهرها ، كما قال عز وجل : " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ "(٥) . وقال : " وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "(٦) [٤] ولذلك قال بعضهم : " قل للأرض : من شق أنهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإن هى أجابتك حوارا (٧) وإلا أجابتك اعتبارا " ، فهى وإن كانت صامتة فى نفسها فهى ناطقة بظاهر أحوالها . وعلى هذا النحو

(١) سورة الرحمن .

(٢) سورة ابراهيم .

(٣) سورة يوسف .

(٤) سورة الدخان .

(٥) سورة الحجر .

(٦) سورة العنكبوت .

(٧) الحوار المحاورة . والمراد " فإن لم تجبك بلسان المقال أجابتك بلسان الحال " .

استنطقت العرب الربع وخاطبت الطلل ، ونطقت عنه بالجواب ، على سبيل الاستعارات فى الخطاب . وقد قال الله عز وجل فى هذا المعنى : "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ"(١)

وقال الشاعر :

يا ربع بُشْرَةَ(٢) بالجناب(٣) تكلّمِ وأبِنْ لنا خبراً ولا تستعجِمِ(٤)

مالى رأيتُك بعد أهلك موحشاً خَلَقاً(٥) كحوض الباقر(٦) المتهدم

فاستنطق مالا ينطق بلسانه ، لأن أحواله مظهرة لبيانه . وقال آخر ، وأجاب عن صامت غير مجيب ، لما ظهر من حاله للقلوب :

فأجهشتُ للتَّوْباذ(٧) حين رأيتُه وكبر للرحمن حين رآنى

فقلت له أين الذين عهدتُهم حواليك فى عيش وخير زمان

فقال مَضَوْا واستودعونى ديارهم ومَن ذا الذى يبقى على الحَدَثان؟(٨)

---

(١) سورة الروم .

(٢) اسم امرأة .

(٣) الجناب بفتح الجيم وكسرها اسم لمواضع متفرقة فى بلاد العرب ، وهو بالفتح خاصة الفناء وما قرب من محلة القوم .

(٤) استعجم سكت وأمسك عن الجواب .

(٥) الخلق محركة : البالى .

(٦) الباقر : جماعة البقر مع رعاتها .

(٧) بذال معجمة جبل بنجد .

(٨) حدثان الدهر وحوادثه : نوبه وما يحدث منه ، واحدها حادث .

وإنما تعبر هذه الأشياء لمن اعتبرها ، وتبين لمن طلب البيان منها ؛ ولذلك جعل الله الآية لمن توسم [١] وتفكر ، وعقل وتذكر ؛ فقال : "إنَّ فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ" [٢] و"إنَّ فى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" [٣] و"إنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ [٤]" فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها لمن اعتبرها وطلب البيان منها .

فاذا حصل هذا البيان للمتفكر صار عالما بمعانى الأشياء ، وكان ما يعتقد من ذلك بيانا ثانيا غير ذلك البيان ، وخص باسم "الاعتقاد" . ولما كان ما يعتقده الإنسان من هذا البيان يحصل فى نفسه غير متعد له إلى غيره ، وكان الله عز وجل قد أراد أن يُتم فضيلة الإنسان ، خلق له اللسان وأنطقه بالبيان ، نخبر به عما فى نفسه من الحكمة التى أفادها والمعرفة التى اكتسبها ، فصار ذلك بيانا ثالثا أوضح مما تقدمه وأعم نفعا ؛ لأن الإنسان [٤ م] يشترك فيه مع غيره ، والذى قبله إنما ينفرد به وحده . إلا أن البيانين الأولين بالطبع ،فلا يتغيران، وهذا البيان والآتى بعده بالوضع فهما يتغيران بتغير اللغات ، ويتباينان بتباين الاصطلاحات . ألا ترى أن الشمس واحدة فى ذاتها ؛ وكذلك هى فى اعتقاد العربى ثم العجمى . فاذا صرت إلى اسمها وجدته فى كل لسان من الألسن بخلاف ما هو فى غيره ، وكذلك الكتاب ، فإن الصور والحروف تتغير فيه بتغير لغات أصحابه ، وإن كانت الأشياء غير متغيرة بتغير الألسن المترجمة عنها .

---

(١) يقال توسمت فيه الخير تفرست ؛ مأخذه من الوسم أى عرفت فيه سمته وعلامته .

(٢) سورة الحجر .

(٣) سورة الرعد .

(٤) سورة النحل .

ولشرف البيان وفضيلة اللسان قال أمير المؤمنين [١] عليه السلام : " المرء مخبوء تحت لسانه ، فإذا تكلم ظهر " ، وهذا من أشرف الكلام وأحسنه ، وأكثره معنى وأخصره ، لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا إذا خاطبته وسمعت منطقه ، ولذلك قال بعضهم وقد سئل : " فى كم تعرف الرجل ؟ " قال : " إن سكت ففى يوم ، وإن نطق ففى ساعة " ، وقال بعض الحكماء : " إن الله عز وجل أعلى درجة اللسان على سائر الجوارح وأنطقه بتوحيده " . وقال الشاعر :

وهذا اللسان بريد[٢] الفؤا د يدلّ الرجال على عقله

وقال الآخر :

وكائن ترى من مُعجِبٍ لك صامتٍ زيادته أو نقصه فى التكلم

واللسان هو تَرْجُمان اللب ، وبريد القلب ، والمبين عن الاعتقاد بالصحة أو الفساد ، وفيه الجمال ، كما قال الله عز وجل : " وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[٣] " . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سأله العباس رضى الله عنه بعرفة فقال : فيم الجمال يا رسول الله ؟ فقال : " فى اللسان " . إلا أنه لما كان النقص للناس شاملا ، والجهل فى أكثرهم فاشيا ، وكان كثير منهم يسرع إلى القول فى غير موضعه ، ويُعجَب بما ليس بمعجب من

(١) هو الإمام على بن أبى طالب .

(٢) البريد هنا الرسول .

(٣) سورة محمد ، ولحن له قال قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره .

منطقه ، احتاطت العلماء على الدهماء [١] بأن أمروهم بالصمت ، ومدحوه عندهم ، وأعلموهم أن الخطأ فى السكوت أيسر من الخطأ فى القول ، وقالوا كلهم : " عثرة اللسان لاتستقال " [٢] وقال الشاعر : [٥]

وجرح اللسان كجرح اليد

وقال آخر :

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل [٣]

وعرفوهم أن الفائدة فى الصمت لصاحبه ، والفائدة فى النطق لغيره . وقال بعضهم وقد سئل عن لزومه الصمت فقال : " أسكت لأسلم وأنصت لأعلم " .

وقيل : " الصمت حُكْمٌ [٤] وقليلٌ فاعِلُه " . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : " من كثر كلامه كثر سقطه " ، قال : وقال النبى صلى الله عليه وسلم : وهل يَكُبُّ [٥] الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد

---

(١) العامة .

(٢) يقال أقال الله فلانا عثرته بمعنى الصفح عنه . وأصله من أقلته البيع فسخته .

(٣) بهامش الأصل إزاء هذا البيت تمامه :

فعثرته من فيه ترمى برأسه وعثرته بالرجل تبرا على مهل

ثم بإزاء هذه الأسطر بالأصل حاشية غير واضحة .

(٤) أى علم وفقه ، قال تعالى " وآتيناه الحكم صبيا " وفى الحديث " إن من الشعر لحكما " أى أن فى الشعر كلاما نافعا ينهى عن الجهل والسفه

(٥) يقلبهم ويصرعهم .

ألسنتهم [1] " . وقال بعض الفلاسفة لرجل سمعه يكثر الكلام : " ياهذا ! أنصف أذنيك من لسانك ، فإنما جعل لك أذنان ولسان واحد لتسمع أكثر مما تقول " : وقال الشاعر :

وفي الصمت ستر للغبي وإنما فضيحةُ لب المرء أن يتكلما

وكل هـذا إنما أرادوا به حجر [2] الناس عن الكلام فيما لا يعلمون والتسرع الى إطلاق ما لا يحصلون . وكما أن الصمت فى أوقاته وعند الاستغناء عنه حسن ، فإن الكلام فى أوقاته وعند الحاجة إليه أحسن . وقد روى عن على بن الحسين رضى الله عنه قول انتظم معنى ما أرادته العلماء فى النطق بأخصر قول وأشبهه بكلام أمثاله ، فقال : " السكوت عما لا يعنيك أمثل من الكلام فيه ، والكلام فيما يعنيك خير من السكوت عنه " . وحسب الأديب أن يستشعر هذا القول ، فإنه يهجم به على محاسن الأمرين إن شاء الله .

وقد يصمت الإنسان ويستعمل الكتمان لمخافة أو رِقْبة ، أو إسرار عداوة أو بغضة ، فيظهر فى حركاته ولحظاته ما يبين عن ضميره ويبدى مكنونه ، مثل ما يظهر من الدمع عند فقد الأحبة ، ومن تغير النظر عند معاينة أهل العداوة . ولذلك قال الشاعر :

إذا لقيناهم نمت عيونهم والعين تظهر ما فى القلب أو تصف

وهذا من بيان الأشياء بذواتها وهو من الباب الأول .

---

(١) أى ما قالته الألسنة من الكلام الذى لاخير فيه ، والحصائد واحدها حصيدة وهى الزرع المحصود .

(٢) منعهم .

[٢٥] ثم إن الله عز وجل لما علم أن بيان اللسان مقصور على الشاهد دون الغائب ، وعلى الحاضر دون الغابر ، وأراد تعالى أن يعم بالنفع فى البيان جميع أصناف العباد ، وسائر آفاق البلاد ، وأن يساوى فيه بين الماضين من خلقه والآتين ، والأولين والآخرين ، ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف اصطلحوا عليها ، فخلدوا بذلك علومهم لمن بعدهم ، وعبروا به عن ألفاظهم ونالوا به ما بعد عنهم ، وكملت بذلك نعمة الله عليهم ، و بلغوا به الغاية التى قصدها عز وجل من إفهامهم وإيجاب الحجة عليهم . ولولا الكتاب الذى قيد على الناس أخبار الماضين ، لم تجب حجة الأنبياء على من أتى بعدهم ولا كان النقل يصح عنهم . ولذلك صارت الأمم التى ليس لها كتاب قليلة العلوم والآداب . وقد امتدح الله عز وجل تعليم الكتاب فى كتابه وبين احتجاجه على الناس فقال: "ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ، عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"(١) . وقال عز وجل : "أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ"(٢) . وقال : "ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ"(٣) .

كل هذه الأقسام التى ذكرناها من البيان لا تخلو من أن تكون ظاهرة جلية أو باطنة خفية ؛ وذلك لما دبره الله عز وجل فى هذا من الحكمة والدلالة عليه ، لأنه جعل بعض خلائقه محتاجا إلى البعض ؛ فالظاهر محتاج الى الباطن لأنه معنى له ، والباطن محتاج الى الظاهر لأنه دليل عليه ، وكذلك سائر مصنوعات الله عز وجل محتاج بعضها الى بعض

(١) سورة القلم .

(٢) سورة طه .

(٣) سورة الأحقاف . والأثارة البقية تؤثر أى تورث .

ليعلم الانسان أنه ليس يستغنى شىء بنفسه و يقوم بذاته غير الله تعالى ، وكل ما سواه فإنما هو بغيره . ولو جعل تبارك وتعالى الأشياء كلها ظاهرة لتساوى الناس فى العلم ولم يتفاضلوا فيه . وفى تساوى الناس – حتى لا يكون فيهم رؤساء متبعون وأتباع مطيعون – بوارهم . وقد قيل : "لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فاذا تساووا هلكوا" ، وعلى ماقلناه دبرهم . وقال فى [٦] كتابه : " وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ .. "(١) الى آخر الآيات ، فجعل علم آدم بما أظهره له وأخفاه عن ملائكته دليلاً على فضله ورياسته ، وأنه المستحق من بينهم ما أفضى إليه من خلافته(٢) لأن من حكمه ألا يسوى بين العالم وغيره . ولو سوى بين الملائكة وبينه فى علم ما علّمه إياه لم يكن هناك تفاضل يوجب له المنزلة التى جعلها له . ولو جعل ، تقدست أسماؤه، الأشياء كلها خفية لم يكن الى علم شىء سبيل ولتساوى الناس فى الجهل ، لكنه بحكمته ومتقن صنعته جعل بعضها ظاهرا مستغنيا بظهوره عن طلبه ، وبعضها باطناً يحتاج (٣) إلى إظهاره والفحص عنه ، وجعل الظاهر دليلا على الباطن وسُلَّماً إليه . ولم يقنع من عباده بعلم الظاهر من الأشياء حتى يعرفوا معانيه وباطن تأويله ، وذم من اقتصر على علم ظواهر الأمور دون بواطنها ، ونفى العلم عنهم ، فقال : " وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ "(٤) وشبه من حمل التوراة حمل حفظ لظاهرها من

---

(١) سورة البقرة .

(٢) أى نيابة عنه سبحانه وتعالى فى الأرض .

(٣) فى الأصل « تحتاج » .

(٤) سورة الروم .

غير تدبر لمعانيها بالحمار ، فقال : " مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا "(١) . وقال فى ذم قوم : " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ "(٢) . وقال : " وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ "(٣) . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ " . والنية باطنة والعمل ظاهر . ولذلك لم يقنع بعلم الباطن والعمل به دون الظاهر . وقال عز وجل : " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ "(٤) . وأعلمنا أن بالظاهر تقام الحجة ، فقال : " قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ "(٥) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان عقد بالقلب ، وقول اللسان ، وعمل بالأركان " ، وليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر فى النفوس وصدقته الأعمال . وذلك لأن النية مغيبة عنا ، وليس يعلمها إلا الله عز وجل وصاحبها ، وإنما يستدل عليها بالقول والعمل . ألا ترى أن الانسان إنما تعرف حكمته الباطنة بما يظهر من صحة قوله وإتقان عمله ؟ وبين فى العقل أنه لما كان الظاهر سببا إلى الباطن وعلة لنيله والوصول إليه وجب(٦) أن يكون معلقا به وغير منفصل منه ، وأن يكون مايدرك من فضيلة العلم منسوبا إليهما لاشتراكهما

[٦ م]

(١) سورة الجمعة .

(٢) سورة يونس .

(٣) سورة يوسف . ويجتبيك يصطفيك .

(٤) سورة الأعراف .

(٥) سورة الرعد .

(٦) زيادة يقتضيها السياق .

فى إيضاحه ، لأن العلة بالمعلول تدرك ، والمعلول بالعلة يوجد ، وألا يكون الأمر كما ظن قوم[1] أرذلوا علم الظاهر وتركوا العلم والعمل به ، وهم مع ذلك مقرون أنهم لا يصلون إلى علم الباطن والإيضاح عن حقيقته إلا به ، فجعلوا ما لا تدرك الحاجة إلا به غير محتاج إليه ، وهذا هو المحال البين . ولو كان الأمر كما ظنوا لبطلت حقوق الناس وتعطلت تجاراتهم ، وفسدت معاملاتهم ، وسقطت أخبارهم ، لأنهم إنما يعملون فى جميع ذلك على الظاهر دون الباطن ، ووضوح هذا يغنى عن الإطالة فيه .

---

(١) يعرض المؤلف هنا بالباطنية ، وهم بعض المتصوفة وعدة فرق إسلامية كالحزمية والقرامطة والاسماعيلية — تشترك كلها فى القول بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، ويعولون فى فهم القرآن والسنة على التأويل ، بخلاف أهل الظاهر الذين يأخذون بظاهر الآيات والأحاديث .

باب فيه البيان الأول

وهو " الاعتبار "

قد قلنا إن الأشياء تُبَيِّن بذواتها لمن تبين ، وتعبِّر بمعانيها لمن اعتبر ، وإن بعض بيانها ظاهر و بعضه باطن ، ونحن نذكر ذلك ونشرحه فنقول :

إن الظاهر من ذلك ما أدرك الحس ، كتبيننا حرارة النار و برودة الثلج عند الملاقاة لها ، وما أدرك بفطرة العقل التى تتساوى العقول فيها مثل تبيننا أن الزوج خلاف الفرد ، وأن الكل أكثر من الجزء . والباطن ماغاب عن الحس واختلفت العقول فى إثباته . فالظاهر مستغن بظهوره عن الاستدلال عليه والاحتجاج له لأنه لاخلاف فيه ، والباطن هو المحتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال ، و يعتبر بوجوه المقاييس والأشكال ، والطريق إلى علم باطن الأشياء فى ذاتها والوقوف على أحكامها ومعانيها ، من جنسين ، وهما " القياس والخبر " . وحجتنا فى القياس [٧ أن الله قد قاس فى كتابه فقال لمن حرم وحلل وهو جاحد للرسل الذين يأتون بالتحريم والتحليل : " أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا " (١) وقال : " قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ " (٢) فلما لم يمكنهم أن يدعوا أن الله عز وجل شافههم بذلك ، وكان من قولهم واعتقادهم إبطال الرسل الذين يؤدون عن الله عز وجل أمره ، تبين لهم أن الذى شرعوه

---

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة يونس .

لأنفسهم ضلال و بهتان ، من غير حجة ولا سلطان ، فقال لهم بعد أن تبين ذلك منهم : " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "[١] . ومن الحديث ما حدث به زُبَيْد الإيامى[٢] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل قوم على رِقْبة من أمرهم وَمَفْلحة عند أنفسهم يَزِدون على من سواهم " . والحق فى ذلك يعرف بالمقايسة عند ذوى الألباب .

وأما الخبر فحجتنا فيه من الكتاب قول الله عز وجل : " فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "[٣] "فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ"[٤] . ولم يكن ليأمر بمسألتهم ، إذا لم نعلم ، إلا وأخبارهم تفيدنا علماً وتزيل عنا شكا . ومن الأثر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نَضَّرَ اللهُ امرءاً سمع مقالتى فوعاها فأدَّاها " . وقوله : « لِيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ منكم » ولم يأمر بذلك إلا و إبلاغ الشاهد الغائب يوجب الحجة، واستماع الغائب من الشاهد يكسب علماً وفائدة .

---

(١) سورة الأنعام .

(٢) محدث توفى سنة ١٢٦هـ . والأيامى منسوب الى أيام ، بطن من قبيلة همدان .

(٣) سورة الأنبياء .

(٤) سورة يونس .

باب فى ذكر القياس(١)

والقياس فى اللغة التمثيل والتشبيه ، وهما يقعان بين الأشياء فى بعض معانيها لا فى سائرها ، لأنه ليس يجوز أن يشبه شىء شيئا فى جميع صفاته ويكون غيره(٢) والتشبيه لا يخلو من أن يكون تشبيها فى حد أو وصف أو اسم . فالشبه فى الحدّ هو الذى يحكم لشبهه بمثل حكمه إذا وجد، فيكون ذلك قياسًا صادقًا و برهانًا واضحًا . والشبه فى الوصف هو الذى يحكم لشبيهه [م ٧٠] به فى بعض الأشياء فيكون صادقًا ، وفى بعضها فيكون كاذبًا . والشبه فى الاسم غير محكوم فيه بشىء إلا أن يكون الاسم مشتقًا من وصف . ونحن نمثل ذلك فنقول : إن حلول الحركة فى المتحرك لما كانت حدًا له وجب أن يكون كل ما حلت فيه الحركة متحركا ، وهذا حق لا مطعن فيه . فأما السواد الذى هو من أوصاف الحبشى فليس حيث وجدناه حكمنا لحامله بأنه حبشى ، ومتى قلنا ذلك كنا مبطلين(٣) ، ولكنا إذا قلنا إن بعض من يوصف بالسواد حبشى صدقنا . وأما زيد الذى هو من الأسماء فليس بموجب أن يكون بينه وبين غيره ممن اتفق له هذا الاسم مماثلة ولا مشابهة إلا أن يكون الاسم مشتقا من وصف فيلحق ما شاركه فى ذلك الاشتقاق ما يلحقه ، مثل الأبيض الذى يسمى به كل من غلب البياض عليه لأنه مشتق منه . والاشتباه فى الأسماء لا يوافق بين معانيها إذا اختلفت ذواتها ،

---

(١) يشتمل هذا الباب على كثير من الاصطلاحات المنطقية فيستعان فى تفهيم التلاميذ معانيه بالمعلومات التى حصلوها فى دروس المنطق .

(٢) فى الأصل : فتكون غيرة ، وظاهر أنه تحريف .

(٣) أى آتين بالباطل الذى هو ضد الحق .

فإن الهوى الواقع على هوى النفس مخالف للهواء الذى بين السماء والأرض وإن اتفقا فى الإسم . وكذلك اختلاف الأسماء إذا اتفقت المعانى لا يوجب اختلافاً فى المعنى ، كالنأى والبعد ، وكلاهما واقع على معنى واحد . فمن أراد أن يحكم الأمر فى القياس فليصحح الكلام وليتفقد أمر الحد والوصف ويتأمل ذلك تأملا شافياً حتى لا يجعل الوصف الذى يوجب الحكم الجزئى فى موضع الحدّ الذى يوجب الحكم الكلى ، وأن يتثبت فى القضاء ولا يعجل فى الحكم ، فان العجل موكل به الزلل . وقد قالت الحكماء : " إن أحد أسباب الخطأ فى القضية قصر مدة الروية " . وأكثر من غلط فى القياس إنما غلط من سوء التمثيل ومسامحة النفس فى ترك التحصيل والمبادرة إلى الحكم بغير روية ولا فكرة .

[٨] وليس يجب القياس إلا عن قول يتقدم فيكون القياس نتيجة ذلك ، كقولنا : إذا كان الحى حساسا متحركا فالإنسان حى . وربما كان ذلك فى اللسان العربى مقدمة أو مقدمتين أو أكثر ، على قدر ما يتجه من افهام المخاطب . فأما أصحاب المنطق فيقولون : إنه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق . والقول على الحقيقة كما قالوا . وإنما يكتفى فى لسان العرب بمقدّمة واحدة على التوسع وعلم المخاطب . والنتائج : إحداها ما صدر عن قول مُسلَّم فى العقل لا خلاف فيه ، فتكون النتيجة عنه [١] برهاناً كقولنا : إذا كان الزوج ما رُكب من عددين متساويين فالأربعة زوج . والأخرى ما صدر عن قول مشهور إلا أنه مختلف فيه فتكون النتيجة عنه إقناعاً ، كقولنا : إذا كان حق البارئ عز وجل واجباً علينا لأنه علة لوجودنا فقد وجب حق الوالد أيضاً علينا . وصحة هذه

---

(١) فى الأصل " ... عنده برهانا " .

النتيجة إنما تقع بالاحتجاج لمقدمتها حتى يعترف بها من لا يعترف ثم تصح . والثالثة ما صدر عن قول كاذب وضع للمغالطة ، كقولنا : إن اللصوص يخرجون بالليل للسرقة ، ففلان سارق لأنه خرج بالليل ، وهذا باطل ، لأن السارق ليس هو سارق من أجل خروجه ، ولا كل من خرج بالليل فهو سارق .

و " الحد " مأخوذ من أصل الشيء الذى منه كونه ، وفصله الذى به ينفصل من غيره . فان حدّ الحى هو الجسم الحساس المتحرك . فالجسم أصله ، والحساس والمتحرك فصلاه اللذان ينفصل بهما من غيره من الأجسام التى لا تتحرك ولا تحس . وكذلك حدّ الدار فإنه مأخوذ من المدينة والمحلة التى هى منهما ومن الجهات التى تنفصل بها من غيرها . وليس يتجه الحكم فى سائر المذاهب على شيء غير محدود ولا منفصل [1] ألا ترى أنه متى شهد شاهدان على رجل بحق عند قاض احتيج أن يشهد الشهود بنسبه الذى هو أصله ، و بعينه واسمه اللذين هما فصلاه اللذان ينفصل بهما من غيره ؛ فان عرفوا ذلك وشهدوا به و إلا لم يُمض القاضى حكما عليه . وكذلك الحق فى نفسه فانه يحتاج إلى أن يذكر أصله من الورق أو الذهب وفصله من الوزن والنقد فيقال وَرِقًا [2] أو عينا وزن سبعة مثاقيل ، فإذا فُعل ذلك كان الحكم ماضيا بيقين من القاضى أنه قد أصاب الحكم فيما أمرهُ [3] . [٨ م]

(١) فى الأصل : "محصل" .

(٢) وفى الأصل : "ورقا وزن سبعة أو عينا مثاقيل" . والورق بكسر الراء الفضة والعين الذهب .

(٣) فى الأصل : "أمره به" .

وأما "الوصف" فهو ذكر بعض الأشياء التي تخص الشيء، وليست ثابتة على حده، كما يقال في الدار إنها الواسعة أو الضيقة أو المبنية بالجص والآجر، وكما يقال في الرجل الطويل الأسمر الأقنى [1]، وكل هذه أوصاف لا تأتى على الحد بل يشرك الموصوفَ بها غيرُه فيها، ومثل ذلك التحلية [2] التي يستعملها الحكام والكتّاب فيمن لم يعرفوه باسمه وعينه ونسبه، فيكون وصفهم الرجل بحليته مقنعاً فيما يمكن من الاحتياط إذا لم يجدوا سبيلاً إلى غير ذلك.

وأما "الاسم" فليس يقع به حكم ألبتة إلا أن يكون مشتقاً من وصف كالأبيض، فإنما يسمى بهذا الاسم كل من غلب البياض على لونه. والاشتقاق والوصف يُعمل فيهما على الأغلب والأكثر. ألا ترى أن الزنجي حامل للبياض في ثغره وفي بياض عينيه، وأن الرومي حامل للسواد في حدقتيه وشعره. ولا يسمى الزنجي أبيض بما فيه من البياض ولا الرومي أسود بما فيه من السواد، لكن يسميان بالأغلب على ألوانهما. وإن دعت ضرورة إلى ذكر ما في الأسود من البياض أو في الأبيض من السواد لم يطلق ذلك لهما حتى ينسب إلى العضو الحامل له، فيقال الأبيض الثغر، والأسود الشعر. واعلم أن القول المنفي ليس بموجب حكماً غير حكم النفي وليس يحصل منه تشبيه ولا تمثيل يقع بهما قياس، وذلك كقولنا زيد غير قائم وعمرو غير قائم، فقد نفينا عنهما جميعاً القيام ولم نثبت لهما جميعاً اجتماعاً في معنى آخر، لأنه قد يجوز أن يكون أحدهما قاعداً والآخر

---

(1) قنا الأنف ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه".

(2) وصف الحلية وهي الخلقة والصفة والصورة.

[٩] مضطجعًا ، وكلاهما غير القيام . وكذلك إذا نفيت عن جسمين البياض لم تثبت لهما اجتماعاً فى لون آخر من الحمرة أو الصفرة أو السواد . ولو شهد شاهدان عند حاكم بأن فلاناً لم يبع ضيعته من فلان لم يكن ذلك بموجب ألا [١] يكون فلان ملكها عليه ، لأن للملك وجوهاً كثيرة غير البيع [٢] ، ولذلك قالت القدماء : إن صفات البارئ عز وجل إنما ينبغى أن تكون بالسلب (يعنون النفى) ، لأنه لا يحصل منه فى النفس ما يقع به تشبيه .

واعلم أن كل مطلوب فإما أن يكون موجودًا أو غير موجود ، وأن الموجود إما أن يكون موجوداً بالحس كالمشمومات والمذوقات والأجسام والأشكال وما أشبه ذلك ، وإما أن يكون موجوداً بالعقل كوجود ما غاب عنا وكوجود الجوهر والبارئ عز وجل . وأن ما وجد بالعدل والعقل من الأشياء الغائبة التى لا تحس فى ذواتها ، فانها تُتَلَقَّط مبادئ المعرفة بها من الحس ، فيعرف الجوهر بالأعراض المحمولة فيه ، كما يعرف ذو اللون باللون وذو العدد ، وكما يعرف البارئ عز وجل بمصنوعاته وآثار فعله ، فان ما يظهر من ذلك عند التأمل له دليل على أن الأشياء لم تكن بالاتفاق وأنها من قصد حكيم دبرها وأحكم ما صنعه منها .

ودلالة الشىء تكون بأحد أربعة أوجه : إما " بالمشاكلة " ، وقد ذكرنا جملا منها [٣] . وإما " بالمضادة " فان الضد يكسب معرفة الضد ، فانا إذا عرفنا الحياة وعلمنا أنها بالحس والحركة عرفنا ضدها الذى هو

---

(١) فى الأصل : " إلا أن " بزيادة " أن " بعد إلا .

(٢) كالهبة والوصية مثلا .

(٣) يشير الى كلامه على التشبيه فى الحد والوصف والاسم " .

الموت وأنه بعدم الحس والحركة . وإذا انتفى [١] أحد الضدين وجب الآخر ضرورة إذا كان الضدان لا واسطة لهما كالموت [٢] والحياة، والحركة والسكون، والضياء والظلام ؛ فأما إذا كانت بينهما واسطة فليس الأمر كذلك، وذلك كالسواد والبياض اللذين بينهما الحمرة والصفرة والخضرة، وكالقيام والقعود اللذين بينهما الاضطجاع والركوع والسجود . فنحن نعرف بالسواد ضده الذى هو البياض ، وبالقيام ضده الذى هو القعود . [٩ م] وإن نفينا السواد عن شىء لم يجب له البياض ضرورة ، كما أنا إذا نفينا عن الشىء الحياة وجب له الموت ضرورة ، لأن الحياة والموت لا واسطة لهما ، وهذه أضداد لها وسائط. وإما "بالعَرَض" كما يعرف الجسم بالطول والعرض . وإما "بالفعل" كما يدل الولد على الوالد ، والباب على النجار . فالمعقول من الموجودات التى لا تحس لا يحد، لأن الحد مأخوذ من الأصل والفصل كما قلنا . والأشياء المعقولة التى لا تحت الحس تقع وليست لها مادة تكون أصلا لها، ولا تنفصل أيضًا من غيرها من المعقولات انفصالا طبيعيًا فيستعمل ذلك فى حدها ، فإنما تعرف بأسمائها وتوصف بأوصاف غير محيطة بحدودها ، فيقال فى الجوهر : الذى يحمل المتضادات فى أنواعه من غير تبديل يلحقه فى ذاته ، ويقال فى البارئ . إنه القديم الذى هو علة لمصنوعاته، وأشباه هذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام لما سأله فرعون: " وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ "[٣] . ولما قال : "فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِى

---

(١) فى الأصل : "وإذا انتفى فى أحد الضدين وجب فى الآخر..." بزيادة كلمة "فى" فى الموضعين " .

(٢) فى الأصل : " بالموت " بالباء بدل الكاف .

(٣) سورة الشعراء .

أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"[١] ، فوصفه بأفعاله ولم يحدّه لامتناع الحد فى ذاته .

قال[٢] : والأشياء التى يقع بها الوصف تسعة ، وهى أعراض كلها . فمنها الحال ، كقولنا زيد ظريف ؛ ومنها العدد ، كقولنا المال درهمان ؛ ومنها المكان ، كقولنا زيد خلفك ، ومنها الزمان ، كقولنا جاءنى زيد أمس ، ومنها الإضافة ، كقولنا هذا ابن زيد ؛ ومنها القُنْية[٣] ، كقولنا هـذا مالك وغلامك ؛ والنُّصبة ، كقولنا زيد مضطجع وقاعد ؛ ومنها الفاعل ، كقولنا يضرب زيد ؛ ومنها المنفعل ؛ كقولنا زيد مضروب — لايكون وصف بغير هذه التسعة . فالحال قد تكون لازمة فتسمى هيئة ، كبياض القطن وسواد الفحم ؛ وتكون غير لازمة فتخص باسم العرض كصفرة الوجل وحمرة الخجل . والعدد منه منفصل ومنه متصل ، فالمتصل ما كان له واسطة تجمع طرفيه وصار متصلا بالمادة ، كالدرهم والدرهمين [١٠] والأشكال والأماكن ؛ والمنفصل ما انفصل من المادة ولم تكن له واسطة تجمع بين طرفيه ، كالواحد والاثنين ، وكالزمان الذى هو حركات الفلك المنفردة . والإضافة نسبة شيء إلى شيء يدور كل واحد منها على صاحبه ؛ فان الصديق صديق صديقه ، والجار جار جاره . والقُنْية ، وهى الملك ، تشبه المضاف من جهة الإضافة إلا أنها تخالفه بأنها لاتدور على الشيء لأنا إن قلنا فى المال إنه مال زيد فليس يجوز أن نقول فى زيد إنه زيد المال كما قلنا فى المضاف.

---

(١) سورة طه .

(٢) لعل كلمة "قال" زيادة من الناسخ .

(٣) الملك .

وضد القُنْيَة العَدَم. وليس يستحق المعدم اسم العدم إلا بعد استحقاقه اسم القُنْيَة ، لأنا لانسمى الطفل فقيراً ، ولا جرو الكلب أعمى ؛ لأن الطفل لم يستحق أن يملك شيئًا فيعدمه ، وكذلك جرو الكلب لم يستحق أن يكون بصيرًا فيعمى . والنصْبة تشارك الحال ، وهى انتصاب الجسم وما يشاهد عليه من قيام أو قعود أو انحراف إلى بعض الجهات المحيطة به . وهى ست جهات : فوق ، وتحت ، وخلف ، و يمين ، وشمال ، وأمام. والفاعل هو الموقع فعله بغيره . وفعله ربما كان باقى الأثر كأثر النجار فى السرير، أو غير باقى الأثر كضرب زيد عمرا . والمنفعل هو القابل لوقوع فعل الفاعل به وتأثيره فيه. وقد يفعل الشىء بطبعه و يفعل باختياره. فالفاعل بالطبع لايمتنع من الفعل فى كل أوقاته وعلى كل أحواله ، كالنار التى تحرق كل ما لاقاها فى سائر الأوقات وعلى كل الأحوال . والفاعل بالاختيار هو الذى يعمل إذا أراد فعله و يمتنع منه متى آثر الامتناع منه ، كالكاتب الذى متى شاء كتب ، ومتى شاء أمسك عن الكتابة . ويقال فى المختار إذا أمسك عن العمل وهو قادر عليه متى همَّ به فاعل بالاستطاعة و بالقوة، كالكاتب الذى يسمى بهذا و إن كان ممسكا عن الكتابة ، لأنه مستطيع لها متى هم بها ، فاذا فعل الكتابة كان كاتبا بالفعل . [١٠م]

وأنواع البحث والسؤال تسعة أنواع : فأولها البحث عن الوجود بـ "هل"، تقول : هل كان كذا وكذا ؟ فيقال "نعم" أو "لا". والثانى البحث عن أنواع الموجودات .. بـ "ما" تقول : ما الإنسان؟ فيقال الحىّ الناطق؛ وما رأيك فى كذا وكذا ؟ فيقال رأيى الفلانى. والثالث البحث عن

الفصل بين الموجودات بـ "أى" تقول: أىّ الأشكال المربع؟ فيقال: هو الذى تحيط به أربعة خطوط [١] . والرابع البحث عن أحوال الموجودات بـ "كيف"، تقول: كيف الإنسان؟ فيقال: منتصب القامة. والخامس البحث عن عدد الموجودات بـ «كم» تقول: كم مالك؟ فيقال: عشرون درهما. والسادس البحث عن زمن الموجودات بـ "متى"، تقول: متى كان هذا؟ فيقال: فى زمن الرشيد. والسابع البحث عن مكان الموجودات بـ "أين" تقول: أين زيد؟ فيقال فى الدار. والثامن البحث عن أشخاص الموجودات بـ "مَنْ" تقول: من خرج؟ فيقال: زيد. و «مَنْ» لاتستعمل إلا فى المسألة عمن [٢] يميز ويعقل. والتاسع البحث عن علل الموجودات بـ "لِمَ" [٣] وليس يقع الجدال والحجة إلا فى العلة، ولا يجب الحق والباطل إلا فيها. ونحن نذكر اعتبار العلل والواجب منها والفاسد إذا صرنا إلى ذكر الجدل فى كتابنا إن شاء الله.

فهذه جمل فى وجوه الاستدلال والقياس تدل ذا اللبّ على ما يحتاج إليه، ومن أراد استيعاب ذلك نظر فى الكتب الموضوعة فى المنطق، وإنما جُعلت عمادًا وعيارًا على العقل ومقوِّمة لما يُخشى زلله، كما جعل البِرْكار

---

(١) يحسن أن تزاد «متساوية ويكون كل خطين متجاورين منها زاوية قائمة».

(٢) فى الأصل: «عما».

(٣) لم يمثل المؤلف للسؤال بـ «لم» إحالة منه على باب الجدل من هذا الكتاب.

لتقويم الدائرة ، والمسطرة لتقويم الخط ، وجعل الميزان مثالا للقياس والموازنة بين المتشابهين لئلا تقع المحارفة [١] والبخس [٢] فى الحقوق وليكون الإنسان على يقين من الإصابة فى ذلك. وقد أتى المتقدمون فى جميع هذه الأحوال بما فيه كفاية لمن فهم .

[١١]

باب الخبر

وأما الخبر ، فمنه يقين ، ومنه تصديق :

فاليقين ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها خبر الاستفاضة والتواتر الذى يأتى على ألسن الجماعة المتباينة هممهم وإراداتهم وبلدانهم ، ولا يجوز أن يتلاقوا فيه ويتواطأوا عليه ، فذلك يقين يَلزم العقلَ الإقرارُ بصحته. وبهذا النوع من الأخبار ألزمنا الله حجج الأنبياء ونحن لم نشاهدهم ولم نر آياتهم ولم نسمع احتجاجهم على قومهم . وذلك من تسخير الله الناس حتى تقوم الحجة ، وإلا فكل واحد من الناس يجوز عليه الصدق والكذب ، فإذا تواترت أخبارهم كان ذلك زائدًا حقا لما قدمناه ، وليس التواتر فعلَهم فيجوز أن يفعلوا ضده ، وإنما هو شاهد لصدقهم ودليل عليه . والدليل غير المدلول عليه ، فقولهم محتمل الصدق والكذب ، لأنه فعلهم وهم مُمكنون مختارون ، والتواتر والاستفاضة معنى آخر ليس من فعلهم ولا من اختيارهم وهو دليل الصدق إذا وجد. وليس هذا فى أخبار العدول [٣] دون الفساق [٤]

(١) المحارفة التشديد فى المعاملة والتضييق فى المعاش ونقص الحظ .

(٢) البخس . النقص والظلم .

(٣) المزكون المقبولو الشهادة .

(٤) الذين لا تقبل شهادتهم لعصيانهم وخروجهم عن طريق الحق .

ولا المؤمنين دون الكفار ، لكنه فى أخبار الجماعة كلها . ولو كان لا يقبل من التواتر إلا ما أتى به أهل الإيمان لم يكن لأحد من المخالفين علوم ينقلونها ولا أخبار يروونها . وقد تكلمنا فى هذا الباب فى كتابى "الحجة" و "الإيضاح" بما أغنى عن إعادته . وليس يخالفنا فيه أحد من أهل ملتنا فنحتاج إلى زيادة فى الشرح له والاحتجاج فيه .

والثانى خبر الرسل عليهم السلام ومن جهر من الأئمة الذين قامت البراهين والحجج من العقل عند ذوى العقول على صدقهم وعصمتهم ، وظهور المعجزات التى لا يجوز أن تكون بنوع من الحيل وليس فى طبع البشر الإتيان بمثلها على أيديهم ؛ فدلت من ليس علم المعقولات والتمييز بين المتشابهات من شأنه ، على أن هذه الأشياء إنما أُجريت على أيديهم [١١م] ليُعلم أنهم عن الله عز وجل نطقوا ، وعليه فى إخبارهم[١] عنه صدقوا ؛ فتتم الحجة بهم الغافل والجاهل ، والمميز والعاقل ، ولا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ولو لم تكن أخبارهم حجة توجب فى عقل من شاهد الأنبياء والأئمة أو نقلت [إليه[٢]] أخبارهم نقلا يوجب الحجة تصديقها[٣] ، لما قال عز من قائل : "لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"[٤] . ولما أمر الله بطاعتهم فقال : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ"[٥] لأن الله عز وجل لا يأمر

(١) فى الأصل "فى أخباره".

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سياق الكلام يقتضى أن يكون "تصديقها" معمولا لـ "توجب" الأولى.

(٤) سورة النساء .

(٥) سورة النساء .

بطاعة من يعلم أنه يعصيه أو يكذب عليه . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب "الإيضاح" بما أغنى عن إعادته والإطالة فيه .

والثالث ما تواترت أخبار الخاصة به مما لم تشهده العامة ، فإن تواترهم فى ذلك نظير تواتر العامة . وقد بين الله عز وجل لزوم ذلك ووجوب التصديق به فقال : "أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ"[1] فجعل علماءهم مع علمهم وهم الخاصة به ، حجة على العامة .

وأما خبر "التصديق" فهو الخبر الذى يأتى [به][2] الرجل والرجلان والأكثر فيما لا يوصل إلى معرفته من القياس والتواتر ولا أخبار المعصومين[3] ولا يعلم إلا من جهة الآحاد ، وذلك مثل الفتيا من حوادث الدين التى ابتُلِى بها قوم دون آخرين ، فسألوا عنها فَخُبِّروا بالواجب فيها فنقلوا ذلك ولم يعرفه غيرهم . وليس يقع ذلك فى أصول الدين التى يتساوى الناس فيها وفى فرضها . والناس محتاجون إلى الأخذ بهذه الأخبار فى معاملاتهم ومتاجراتهم ومكاتباتهم ، فان ذلك أجمع مما لا يقوم البرهان على صدق المخبر به من عقل ولا تواتر ولا خبر معصوم ؛ وإنما يعمل فى جميعه على خبر من حسن الظن به ولم يُعرَف بفسق ولم يظهر منه كذب . وقد أبى قبول خبر الواحد قوم من أهل الملة مع إقرارهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد

(١) سورة الشعراء .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) اى الممنوعين من المعاصى

[١٢] بَلَّغ من(١) نأى عنه بالواحد من أصحابه والاثنين، وبَلَّغ النساء المخدرات (٢) اللواتي ليس من شأنهنّ البروز بما ألزمهنّ إياه من قبول أخبار أزواجهن وآبائهن وأبنائهن ، وكل هؤلاء آحاد . وقد استقصينا الكلام في هذا في كتاب " الحجة " .

وقد يستنبط علم باطن الأشياء بوجه ثالث وهو الظن والتخمين ، وذلك فيما لا يوصل إليه بقياس ولا يأتى فيه خبر. وفى الظن حق وباطل : ولذلك قال الله عز وجل : "إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ" (٣) وقال فى موضع آخر فأخرجه مخرج اليقين : "وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ" (٤) . وظن كل امرئ على مقدار عقله ، فإن كان عقله صحيحا وتمييزه معتدلا وعلمه ثاقبا وسلم من متابعة الهوى فيما يوقع الظن فيه، فقد صدق ظنه .وقد قيل "ظن الرجل قطعة من عقله " . وقيل : " ما ازدحمت الظنون على سر إلا أظهرته " . وقال أردشير(٥) : "الظنون مفاتيح اليقين". قال الشاعر :

الألمعى(٦) الذى يظن لك الظـــن كأن قد رأى وقد سمعا

---

(١) فى الأصل "ما" بدل "من" .

(٢) الخدر بالكسر ستر يمد للجارية ناحية البيت ، والمخدرات النساء الملازمات لخدورهن أى بيوتهن .

(٣) سورة الحجرات .

(٤) سورة التوبة .

(٥) اسم عدة من ملوك الدولة الساسانية الفارسية . أشهرهم أردشير بن بابك مؤسس الدولة المذكورة ، وقد حكم من عام ٢٢٦ الى عام ٢٤١ م . والغالب أنه المراد هنا لكثرة ما ينسب اليه من الحكم والآداب السلطانية .

(٦) الذكى المتوقد الذهن .

وقال آخر :

تناصرتِ الظنونُ عليكَ عندى ... وبعضُ الظنِّ كالعِلْمِ اليَقينِ

وقد حكم عمر بن الخطاب فى القوم الذين قاسمهم أموالهم بهذا النحو. فإنه قاسمهم [1] على الظن فيهم، ولو تبين خيانتهم أموال المسلمين لما وسعه أن يأخذ بعض ذلك ويدع عليهم بعضه، لكنه لما ظهر له منهم مايوجب التهمة، ولم يقو فى نفسه قوة اليقين، قاسمهم. ومن الظن العِيافة [2] والقيافة [3]، والزجر [4]، والكهانة [5]، واستخراج المعمّى [6] والمترجَم [7] من الكتب — فكل ذلك إنما ابتداؤه الظن. والتطير [8] فمرة يجعلون الغراب دليلا على الغربة، والبان [9] على البين، والقَضْب [10] على قضب النوى، فيزجرون على الأسماء واشتقاقها دون المعانى. قال الشاعر :

---

(١) أى أخذ لبيت المال نصف الأموال التى اكتسبوها فيا سوى عطائهم. وممن قاسم عمر سعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص.

(٢) العيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها أو بغيرها من الأشياء فتسعد أو تتشاءم.

(٣) القيافة على قسمين: قيافة الأثر، وقيافة البشر، فالأولى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى البحث عن الفار من الناس، والضال من الحيوان. والثانية الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبه.

(٤) الزجر هو العيافة بمعناها المتقدم فى التعليق.

(٥) الكهانة ادعاء العلم بغيبيات الأمور والإخبار بها، ومن كهان العرب شق وسطيح.

(٦) هو الخفى من معانى الكلام.

(٧) المحتاج إلى تفسير ومنه الترجمان وهو المفسر للسان.

(٨) التشاؤم.

(٩) شجر يسمو ويطول فى استواء، وليس لخشبه صلابة، واحدته بانة.

(١٠) ما قطع من الأشجار للسهام أو القسى.

رأيت غراباً ساقطاً فوق قضبة من القضب لم ينبت لها ورق خضر

فقلت غرابٌ لاغتراب، وقضبة لقضب النوى، هذى العيافةُ والزجرُ

ومرّة يزجرون على الأحوال، فيكرهون الأعضب (١)، والأعور، والناقص الخلق لما فيهم من التقصير عن التمام، ويكرهون الشيخ لإدبار [١٢م] عمره، والأحدب لظهور عاهته، كما قال الشاعر:

ولم أغدُ فى أمر أؤمّل نُجحه فقابلنى إلاّ غُرابٌ وأرنبُ

فإن كان من إنسٍ فلا شك كافرٌ وإلا فشيخٌ أعورُ العين أحدبُ

وإنما يتشاءمون بالأرنب لقصر يديها، فكأنه إذا مدّ يده إلى شىء يريد نيله فقابلته أرنب، فقد بينت له وهى قصيرة اليد أنّ يده تقصُر عن نيل ما أراده ومدّ اليه يده. وقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بعض القافة (٢) وقد رأى رِجلَ أسامة بن زيد (٣) ورِجل أبيه يقول: هذه أقدام بعضها من بعض، فسُرّ بذلك. وحكم أهل الحجاز بقول القافة فى الولد من الأمة اذا جحده أبوه أو شك فيه.

فاذا اردت أن يصدُق ظنك فيما تطلبه بالظن مما لا تصل إلى معرفته بقياس ولا خبر، فاقسم الشىء الذى يقع فيه ظنك إلى سائر أقسامه فى العقل، وأعط كل قسم حقه من التأمل، فاذا اتجه لك أن الحق فى بعض ذلك على أكبر الظن وأغلب الرأى، جزمت عليه وأوقعت الوهم على صحته، وذلك

---

(١) المكسور القرن.

(٢) جمع قائف وقد سبق شرحه.

(٣) أسامة بن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم وابن مولاه.

أن تظن بإنسان لك عداوةً ولا يتبين ذلك فى تغير وجهه ، ولا نبو [١] طرفه عنك ولا فى شيء مما يظهر من فعله بك ، فتحصر الأشياء التى توقع العداوة بين المتعادين ببالك ، وهى : الشركة ، والمناسبة ، والمنازعة ، والميراث ، والجوار ، والمنزلة المتنازعة ، والخلاف فى الديانة ، والحقد ، والترة [٢] والإساءة المتقدمة . وما أشبه ذلك من الوجوه الموجبة للعداوة ، ثم تنظر ، فإن اجتمعت بينكما تلك الأحوال أو أكثرها أوقعت وهمك على أنه لك عدو ، وكانت قوة التوهم منك فى ذلك على حسب كثرة ما يجتمع بينكما من الأحوال الموجبة للعداوة ، فتجنبته وعاملته معاملة العدو الذى قد بان أمره . وإن وجدته ينفرد ببعضها اسْتَبْرَيْتَ [٣] صحة الظن بأن [١٢] تنظر هل يجمعكما بعض ما يوجب اللطف والمودة ويزيل بلية تلك الخَلَّة ، من موافقة فى مذهب ، أو إحسان متقدم ، أو غير ذلك ، ثم وازنت بين الخلال الموجبة للعداوة والخلال الموجبة للصداقة ، وكنت فى حيز الأقوى من الصنفين . وإن لم تجد بينكما ما يوجب العداوة أزلت عن قلبك باب الظنة وكنت على مالم تزل عليه لصاحبك من الثقة . وقد استخرج أمير المؤمنين عليه السلام أشياء من الأحكام ، لمَّا عدم البينات فيها وتجاحد أهل الدعوى ولزموا الإنكار ، بهذا النوع من الاستخراج ؛ فمن ذلك أنه لما أتى بامرأتين وصبي وادعت كل منهما أن الصبي ابنها ، أعمل فكره وظنه ، فعلم أن من شأن الوالدة الرقة على ولدها والمحبة لدفع الآفة عنه ، فقال لقَنبَر [٤]

---

(١) يقال نبا بصره عن الشيء نبوا : تجافى عنه ولم ينظر إليه .

(٢) الترة : الذحل والظلم — من وتر يتر وترا وترة .

(٣) يقال : استبرأت الشيء اذا بلغت غايته لتقطع الشبهة عنك فيه خففت همزته .

(٤) اسم مولى الإمام على بن أبى طالب .

خذ السيف واقطع الولد نصفين وادفع إلى كل واحدة منهما نصفه ، فلما سمعت الوالدة بذلك أدركها الإشفاق فقالت : أنا أسمح بحصتى لصاحبتى ، فعلم أنه ابنها فسلمه إليها . وكذلك فعل بالرجلين اللذين ادعى كل واحد منهما أن الآخر عبده ، فإنه علم ما يتداخل النفس من الجزع عند معاينة الموت وأن تلك الحال تُذهل عن لزوم الدعوى وتشغل عن طلب الحجة ، فقدّمهما ومدّ أعناقهما وقال لبعض أصحابه : اضرب عنق العبد ! فثنى العبد عنقه حذراً من السيف وظهر بذلك أنه العبد دون الآخر فسلمه إلى صاحبه . فكل هذه الأحوال التى عددناها إنما تقع أوائلها بالظن ، فإن شهد لها ما يخرجها إلى اليقين صارت يقيناً وإلا كانت تهمة وظِنّة وإثماً . ألا ترى أنك تظن بالترجمة أنها حروف ما ، فاذا أدرتها فى سائر المواضع التى تثبت صورها فيها وامتحنتها فوجدتها مصدِّقة لظنك حكمت بصحتها وإذا خالفت علمت أن ظنك لم يقع موقعه فأوقفته على غير تلك الحروف إلى أن [١٣م] تصح لك . ويشهد لما قلناه من أن الظن إذا لم يشهد له ما يقويه ويحققه فليس ينبغى أن يلتفت إليه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاثٌ لا يسلَم منهن أحد : الطِّيَرةُ [١] والظنّ والحسد " ، قيل فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : " إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقِّق ، وإذا حسدت فلا تبغ " .

وقد حصل لنا الآن من علوم ما تبين عنه الأشياء بذواتها " يقين " وهو ما تعترف العقول بصحته ويلزمها الإقرار به ، و " تصديق " وهو ما تقتنع النفوس به وإن كان فى الممكن أن يقع غيره أوكد من موقعه ، و " ظن " قد احتيط فيه حتى وقع موقع اليقين عند مستعمله . وقد شبهت القدماء

(١) ما يتشاءم به .

" اليقين " من هذه العلوم بحكم القاضى (١) ، و" التصديق " بحكم صاحب المظالم (٢) ، و" الظن " بحكم صاحب (٣) الشرطة . وطلبوا فى الأشياء اليقين ، فإذا وجدوه تركوا غيره ، وإذا عدموه طلبوا الإقناع الذى يقع به التصديق ، فإذا وجدوه أخذوا به ، وإن لم يجدوه أعملوا الظن حتى يستخرجوا به ما يحتاجون إليه . وكذلك الحقوق إنما تطلب من الحكام بالبينة العادلة والشهادة القاطعة فيما يحضره العدول (٤) . فإن كان الحق مما لم تشهده العدول طلبوا الإقناع ، وطُلِب من أصحاب المظالم بالكشف ومسألة أهل الخبرة من المستورين (٥) والمجاورين (٦) . فإن كان مما لم يشهده أحد وأخذ سراً ، طلب من صاحب الشرطة فيوقع الظن على أهل التهمة ، ومن جرت عادته بالريبة ، فيبسط (٧) عليهم ويحتال

---

(١) و (٢) و (٣) القضاء منصب الفصل بين المتنازعين بمقتضى الأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة مع ثبوت الأدلة القاطعة . وكان هذا المنصب هو وحده المختص بذلك فى صدر الإسلام . فلما كثرت المشاحنات ، وفسدت الذمم ، وكثر الغصب والتعدى على الحقوق ، لم يعد نظام القضاء بمعناه السابق كافيا فى ردع النفوس . فظهر نظام النظر فى المظالم ، وهو أوسع نظرا من القضاء ، فلصاحبه اصطناع الإرهاب فى تقرير الخصوم والحكم بغلبة الظن والجواز وشواهد الأحوال . أما الشرطة فكان صاحبها يجعل للظن مجالا فى الحكم وكان يفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ولو وقعت العقوبة على برىء ، وتخطت جانيا .

(٤) هم الشهود الذين يقومون عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لم يعلمهم . ويشترط فيهم العدالة الشرعية ، أى أن يكونوا ملازمين لواجبات الشرع ومستحباته ، مجتنبين للمحرمات والمكروهات .

(٥) المعروفون بالعفة .

(٦) العاكفون بالمساجد .

(٧) أى يضع عليهم العقوبة ونحوها .

فى تقريرهم إلى أن يظهر ما عندهم . وقد يجوز أن يكون فيمن توقع التهمة عليه من هو برىء إلا أنه لا يوصل إلى استخراج الحقوق من اللصوص وأشباههم إلا بمثل هـذه الحال . ولو طُلِب فى ذلك البينة من العدول المرضيين وأخيار المستورين من المجاورين ماتهيأ استخراج سرقة أبداً .

[١٤] فليس فى هذه الأحكام الثلاثة ، إذا [١] خرج كل واحد منها من معدنه ؛ وجرى على ترتيب ما وضع له ، ما ينسب إلى جور ولا ظلم ؛ ولكن إذا اختلفت مواقعها ومخارجها ، فقضى القاضى بالكشف والمسألة ؛ وقضى صاحب المظالم بالظن والتهمة ، وقضى صاحب الشرطة بالعدول والبينة — نسب كل واحد منهم إلى الجور ، لعدوله عمـا توجبه رتبته ، وخروجه عن الرسم الذى رُسم له . وكما لا يستغنى بواحد من هؤلاء الحـكام الثلاثة عن باقيهم ، فكذلك لا يستغنى فى استخراج بواطن العلوم بواحد من هـذه الوجوه التى ذكرناها عن سائرها . وهذا فيما أردنا ذكره من الاعتبار مقنع إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : "... فى هذه الأحكام الثلاثة ما إذا خرج" . زيادة "ما" .

باب فى البيان الثانى

وهو " الاعتقاد "

قد قلنا : إن الأشياء إذا بينت بذواتها للعقول وترجمت عن معانيها وبواطنها للقلوب ، صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفةً وعلماً مركوزين فى نفسه .

وهذا البيان على ثلاثة أضرب : فمنه حق لا شبهة فيه . ومنه علم مشتبه يحتاج إلى تقويته بالاحتجاج فيه ، ومنه باطل لاشك فيه .

فأما " الحق " الذى لاشبهة فيه فهو علم اليقين . واليقين ما ظهر عن مقدمات طبيعية ، كظهور الحرارة للمتطبب عند توقد اللون وسرعة النبض واحمرار البول ، أو عن مقدمات ظاهرة فى العقل ، كظهور تساوى الأشياء إن كانت مساوية لشىء واحد ، وكظهور زيادة الكل على الجزء ، أو عن مقدمات خلقية مسلمة بين جميع الناس ، كظهور قبح الظلم ، وكل خبر أتى على التواتر[1] من العامة أو التواتر من الخاصة أو سمع من الأنبياء والأئمة . وكل هذا يوجب العلم ، ومن شك فى شىء منه كان آثماً ؛ ولذلك صار من شك فى البارئ تعالى كافراً ، لأن نتيجة المعرفة به فى مقدمات ظاهرة للعقل ، وكذلك من شك فيما تواترت به الرواية أو تضمنه الكتاب الذى نقله من تجب بنقله الحجة .

[١٤م]

(1) المتواتر من الأخبار ما رواه جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب عادة ثم رواه عنهم مثلهم ، وهكذا حتى وصل إلينا ، وهو قطعى الدلالة عند الأصوليين .

وأما "المشتبه" الذى يحتاج إلى التثبُّت فيه وإقامة الحجة على صحته فكل نتيجة ظهرت عن مقدمات غير طبيعية ولا ظاهرة للعقل بأنفسها ولا مسلمة عند جميع الناس ، بل تكون مسلمة عند أكثرهم أو تظهر للعقل بغيرها وبعد الفحص عنها والاستدلال عليها ، وذلك كرأى كل قوم فى مذاهبهم وما يحتجون به لتصحيح اعتقاداتهم ، وكل خبر أتى به الآحاد والجماعات التى لاتبلغ أن تكون تواترًا بل يجوز على مثلهم فى العدّة الاجتماع على الكذب والاتفاق عليه ، إذا كانوا عدولا ولم يخالف قولهم ما جرى به العرف والعادة . وذلك مثل روايات كل قوم فيما اعتقدوه وإخبارهم عن أهل العدالة عندهم فيما اجتلبوه ، وكل ظن قويت شواهده وكان الاحتياط فى الرأى والدين تغليبه . وكل هذه الأمور التى عددناها فإنما يأتى العلم بها على طريق التصديق لا على اليقين ، والحجة على معنى الإقناع لا البرهان وهى توجب العمل ولا توجب العلم ، وليس على من شك فيها إثم ولا لوم ، وذلك كالحكم بالشاهدين وتصديقهما فى الحقوق ؛ وإن كنا لا نعلم حقيقة قولهما ولا نشهد بصحة غيبهما ، لأنهما قد يجوز أن يكونا كاذبين ، إلا أن علينا العمل بما شهدا به إذا كانا عدلين مرضيين . وكذلك ما أتانا من الأخبار فى الأحداث التى تنقض الوضوء ؛ من الدم السائل والقهقهة فى قول العراقيين ، والملامسة ومس الذكر فى قول أهل الحجاز — فان ذلك كله يوجب العمل على من صحت عنده عدالة المخبر له وليس يوجب العلم ، ولا يكون من شك فى ذلك أو جحده آثمًا . وأما الظن [١٥] فإنه إذا قويت شواهده وعضده من الرأى ما يوجبه ، فإنما يجب العمل عليه ولا يجب العلم بحقيقته . والفرق بينه وبين ما يأتى من الأخبار عن الآحاد ومن القياس المقنع أن ذلك مقبول على ظاهره ؛ فإنا نقبل كل خبر

جاءنا به من لانتهمه بكذب ، وكل نتيجة ظهرت عن مقدمة [صح][1] استعمالها عند أهل النظر و إن لم نشهد بصحة ذلك ؛ ولسنا نقبل الظن على ظاهره ولا نعمل عليه ، إلا إذا شهد له غيره ، فهو نكبر الفاسق أوالكافر اللذين لايكذَّبان ولا يصدقان فيه ، إلى أن يظهر لسامعهما ما يوجب التصديق أو التكذيب فيعمل عليه .

وأما " الباطل " الذى لا شك فيه فما ظهر عن مقدمات كاذبة مخالفة للطبيعة مضادة للعقل ، أو جاء فى أخبار الكاذبين الذين يخبرون بالمحال وما يخالف العرف والعادة ؛ وذلك مثل اعتقاد السوفسطائية[2] أنه لاحقيقة لشيء ، وأن الأمور كلها بالظن والحُسبان . واعتقادهم حقيقةَ ما يقولونه دليلٌ على أن الأشياء لها حقائق فى نفسها وأنهم مبطلون فى دعواهم . وكأخبار النصارى عن المسيح بأنه كان بشرًا فصار إلهًا ، وكان محدثًا فصار قديما ، وأن الواحد الذى هو جزء للثلاثة ثلاثة من غير تفريق ، وأن الثلاثة التى هى كل للواحد واحد من غير جمع وتركيب ، و إتيانهم فى ذلك بالمحال الذى لايعقل . ولما أن كان الله عزوجل قد أمرنا بأن نعتقد الحق ونقول به ، وألا نعتقد الباطل ولا ندين به ، فقال : " وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) اسم فرقة يونانية قديمة نصبت نفسها لتعليم الناشئة اليونانية طرق النجاح فى الحياة بصرف النظر عن تحرى الحق والفضيلة الذى كان دأب الفلاسفة فكان السوفسطائيون يثقفون النشء تثقيفا عاما و يعلمونه الخطابة والسياسة والجدل . ثم تطرقوا الى تعليمه أساليب المغالطة فى الجدل وتشكيكه فى حقائق الأشياء ومعانيها مما دعا الى رميهم بإفساد أخلاق الناشئة . وقد حمل عليهم الفلاسفة وخاصة سقراط وأفلاطون وقضوا على حركتهم وحلوا محلهم آخر الأمر فى تعليم الشعب اليونانى .

ربكم »(١) ، وقال : « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه »(٢) ، وعرفنا زهوق الباطل(٣) وخسران أهله ، فقال : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »(٤) وقال : « وخسر هنالك المبطلون »(٥) ، وجب أن يحتاط العاقل لنفسه ودينه فلا يعتقد إلا حقا ، ولا يكذب إلا باطل ، ولا يقف إلا عند شبهة ، وحتى لا يكون ممن شهد بما لا يعلم أو كذب بما لم يحط بعلمه .

وإذا نظرنا فى الثلاثة الأضرب التى قدمنا ذكرها وجدنا من الواجب أن نعتقد صحة جميع ما ذكرنا أنه يقين وحق لا شبهة فيه ، ونشهد بصحة ذلك فلا تخالجنا الشكوك فيه ؛ فإنا متى شككنا فى شىء منه أخطأنا وأثمنا كما قلنا قبل هذا الموضع ، وأن ننظر فيما أتى من الصنف الثانى الذى قد وقع الاشتباه فيه وادعى كل قوم إصابة الحق فيه ، فإن كان مما أتى من جهة الآحاد والقياس احتطنا فيه بتصحيح المقدمات التى هى نتيجة وحراستها من المغالطة التى قدمنا ذكرها ، فإذا صحت ميزناها على كم وجه تقال إن كانت مما يقع لفظه على معان كثيرة ، وننظر أى وجه منها هو مراد المتكلم من قوله ؛ فاذا ميزنا ذلك استخرجنا فصولها التى تنفصل بها من غيرها حتى يظهر الحد الذى يفرق بينها وبين ما يباينها . فإذا فعلنا ذلك

---

(١) سورة الكهف .

(٢) سورة الأعراف .

(٣) أى اضمحلاله .

(٤) سورة الاسراء .

(٥) سورة غافر .

صححنا التشبيه وألحقنا كل شيء بما يشبهه . فإذا أتينا بذلك على هذا الترتيب والتحصيل صح لنا ما نريد تصحيحه بالقياس إن شاء الله . وإن كان مما أتى من جهة الآحاد[١] من الخبر والجماعات القليلة العدد احتيط فى ذلك ، أولا بعرضه على العقول ، فإن باينها وضادها فهو باطل ؛ وإن لم ينافها وكان مما يجوز فى العقل وقوع مثله ، يُتَثَبَّتُ[٢] فى أمر نَقَلَتِها حتى لا تؤخذ إلا ممن ظهرت عدالته ولم يتهم بكذب ولا وهم فى خبره ولم يكن فيما خبر به جارًّا إلى نفسه ولا دافعاً عنها ، ولم يعارضه خبر مثل خبره يبطل ما خبر به . وبجميع ماذكرنا قد جاء القرآن وجرت الأحكام ؛ فقال الله عز وجل : " وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ " [٣] . وقال : " إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ " [٤] . وأجمعت الأمة على ألا تُقبل دعوى أحد لنفسه ولا شهادته فيما جر إليها أو دفع عنها ، وعلى أنّ الأخبار إذا تكافأت بطلت [٥] . ثم إن كان الخبر من أمر الدين عرض على كتاب الله عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فإن وجد مخالفاً خلاف مضادة علم أنه ليس من رسول الله صلى الله عليه [١٠٦] وسلم ، لأن رسول الله لا يضاد كتاب الله . وإن كان الخلاف من جهة

---

(١) فصل بين الآحاد والجماعات بـ " من الخبر " الذى هو بيان لـ " ما " .

(٢) فى الأصل : " يثبت " .

(٣) سورة الطلاق .

(٤) سورة الحجرات .

(٥) يعنى أنه إذا جاءت الأخبار بالشىء وضده ولم يكن هناك ما يرجح منها جانبا على جانب فإنها جميعها تعتبر باطلة .

خصوص وعموم [١] ، وناسخ ومنسوخ [٢] ، ومحكم ومتشابه [٣] ، ومجمل ومفسر — كان ذلك معمولا عليه مأخوذاً به على الشرائط التى ذكرناها فى كتاب "التعبد" . وإن لم يوجد لذلك أصل فى كتاب الله وكان مما يجوز التعبد به فليس ينبغى أن يدفع ؛ لأن الله عز وجل قد شرع على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم شرائع لم يثبتها فى كتابه ، فمنها رجم الزانى المحصن [٤] واليمين مع الشاهد [٥] ، وتحريم كل ذى ناب ومخلب ، [٦] وأشباه لذلك، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أوتيت الكتاب ومثله معه" أى من السنن التى شرعها الله على يديه . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر من أمرى فيقول لا أدرى ، ما وجدت فى كتاب الله عملت به" ، بل يؤخذ إذا أتى عن الثقات وكان مما يجوز أن يتعبد الله به عباده ولم يضاد العقل والكتاب . وإذا أتت أخبار الثقات بالشىء وضده ، ولم يكن فى نقلة الخبرين من يتهم بقلة ضبط ولا وهم ، ولم يكن الخلاف فى ذلك من جنس ما قدمنا، إلا أنه من رواية الشيعة عن الأئمة عليهم السلام ؛ فقد علم أنهم عليهم السلام لا يأمرون بالشىء وضده لأنهم حكماء ، والمناقضة عن الحكماء

---

(١) الخاص ما هو عمومى يراد به الخصوص كقوله : "وأوتيت من كل شىء" . والعام ما ليس مخصوصا بل هو على عمومه كقوله : "والله بكل شىء عليم" .

(٢) النسخ فى الحكم تبديله برفعه ووضع غيره مكانه : فالناسخ كقوله : "واقتلوا المشركين" والمنسوخ كقوله : "لا إكراه فى الدين" .

(٣) المحكم من القرآن ما كان ظاهر المعنى بحيث تتناوله الأفهام كقوله : "قل هو الله أحد" والمتشابه ما ليس كذلك كقوله : "يد الله فوق أيديهم" .

(٤) أى المتزوج .

(٥) أى إحلاف المدعى اليمين مع وجود من يشهد له .

(٦) أى تحريم كل ما يأكل اللحم سبعا كان أو طيرا .

منفية ، فقد أحاط العلم [1] بأن سبب الخلاف فى ذلك إنما هو خروج الجواب فى أحد الحالين على سبيل التقية [2] والتقيّة إنما هى فيما خالَف فتيا العامة ؛ فلذلك أوصوا عليهم السلام فيما يؤثر عنهم ولا يختلف فيه علماؤهم بأن يُعمل فيما تضادّت به الرواية عنهم بما خالف فتيا العامة وعملها. وإن نقل إلينا أصحابهم عليهم السلام مالا نعلم مخرجه ، وقفنا فيه ووكلناه إلى عالمه ، ولم نعتقد فى شىء منه تصديقاً ولا تكذيباً ، إلى أن يتبين لنا [١٦م] ما يوجب أحدهما فنعتقده ، إذ كان اعتقاد الباطل عندنا كدفع الحق ؛ وبذلك أمرونا فقالوا : " الأمور ثلاثة : فأمر يتبيّن لك رشده فاتبعه ، وأمر يتبين لك غيّه فاجتنبه ؛ وأمر اشتبه عليك فكِلْه الى عالمه". وهذا ما فى الاعتقاد وبالله التوفيق والسداد .

---

(1) قوله : "فقد أحاط العلم" جواب الشرط الذى صدّرت به الجملة وهو قوله : "وإذا أتت ... الخ" ويلاحظ أن بعد ما بين الشرط وجوابه ؛ مع كثرة ما فى الكلام من اعتراض واستدراك ، قد أضعف تركيب الجملة ضعفا ظاهرا

(2) التقيــة أن يق المؤمن نفسه من الحكومات أو من العقوبة بما يظهر وإن كان على خلاف ما يضمر ، وهم يرون فيها توسيعا من الله على المؤمنين ودليلهم على جوازها قوله تعالى فى سورة النحل : "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان".

باب فيه البيان الثالث

وهو "العبارة" (١)

وأما البيان بالقول فهو العبارة . وقد قلنا إنه يختلف باختلاف اللغات، وإن كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة فى ذواتها ، وإن منه ظاهرا ومنه باطنا ، وإن الظاهر منه غير محتاج إلى تفسير ، وإن الباطن هو المحتاج إلى التفسير ، وهو الذى يتُوصل إليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر . ونحن نذكر الآن ذلك بشرحه إن شاء الله فنقول :

إن الذى يوصل إلى معرفته من باطن القول بالتمييز والقياس ، مثل قول الله عز وجل "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (٢) . وهو لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا ولم يخلهم من الأمر والنهى . ومثل قوله :"فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" (٣)، وهو لم يطلق لهم الكفر ولم يبحهم إياه . فهذا وإن كان ظاهره التفويض إليهم فإن باطنه التهدد لهم والوعيد ويدل على ذلك بعقب هذا : "إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا" (٤) وأما ما يوصل إليه بالخبر فمثل "الصلاة" التى هى فى اللغة

---

(١) قد ضمن المؤلف هذا الباب كلامه على الوجه الرابع من أوجه البيان عنده وهو "البيان بالكتاب" (انظر ص ١٠) .

(٢) سورة فصلت .

(٣) سورة الكهف .

(٤) سورة الكهف . "أعتدنا" هيأنا و"سرادقها" فسطاطها ، وقيل دخانها و"المهل" الحديد المذاب "ومرتفقا" متكأ .

الدعاء ، و " الصيام " الذى هو الإمساك ، و " الكفر " الذى هو ستر الشىء ، فلولا ما أتانا من الخبر فى شرح مراد الله فى الصلاة والصيام ومعنى الكفر ، لما عرفنا باطن ذلك ولا مراد الله فيه ولا كان ظاهر اللغة يدل [١٧] عليه ، بل كنا نسمى كل من دعا مصلياً ، وكل من أمسك عن شئ صائماً ، وكل من ستر شيئا كافراً ، فلما أتانا الرسول صلى الله عليه وسلم بحدود الصلاة من التكبير والركوع والسجود والتشهد ، وبحدود الصيام من ترك الأكل والشرب والنكاح نهاراً ، وأن الكافر الذى يجحد الله ورسله ، وصلنا إلى علم جميع ذلك بالخبر ، ولولاه ما عرفناه . وللغة العربية التى نزل بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم البيان ، وجوه وأحكام ومعان وأقسام متى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها واستنباط ما يدل عليه لفظها ، لم يبلغ مراده ولم يصل إلى بغيته . فمنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم ، ومنها ماهو خاص له دون غيره ، ويجمع ذلك فى الأصل " الخبر " و " الطلب " .

و " الخبر " كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده ، كقولك : قام زيد ، فقد أفدته العلم بقيامه . ومن الخبر ما يبتدئ المخبر به ، فيُخص باسم " الخبر " . ومنه ما يأتى به بعد سؤال فيسمى " جواباً " كقولك فى جواب من سألك : ما رأيك فى كذا ؟ فتقول رأيى كذا . وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خبراً ، فاذا أتى بعد سؤال كان جواباً كما قلنا .

و " الطلب " كل ماطلبته من غيرك ، ومنه الاستفهام والدعاء والتمنى لأن ذلك كله طلب . فإنك إنما تطلب من الله بدعائك ومسألتك ، وتطلب من المنادى الإقبال عليك أو إليك ، وتطلب من المستفهَم منه بذل الفائدة لك . ومن الاستفهام ما يكون سؤالا عما لا تعلمه لتعلمه ، فيُخص باسم

"الاستفهام". ومنه ما يكون سؤالا عما تعلمه ليُقَرّ لك به، فيسمى "تقريرا". ومنه ما يكون ظاهره الاستفهام ومعناه التوبيخ كقوله تعالى: "أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"[1]. ومن السؤال ما هو محظور، ومنه ما هو مفوض. فالمحظور ما حظرت فيه على المجيب أن يجيب إلا ببعض السؤال، كقولك: [١٧م] ألحما أكلت أم خبزا؟ فقد حظرت عليه أن يجيبك إلا بأحدهما. والمفوض كقولك: ما أكلت؟ فله أن يقول ماشاء من المأكولات، لأنك فوضت الجواب إليه. وليس فى صنوف القول وفنونه ما يقع فيه الصدق والكذب غير الخبر والجواب. إلا أن "الصدق والكذب" يستعملان فى الخبر، ويستعمل مكانهما فى الجواب "الخطأ والصواب" والمعنى واحد وإن فرق اللفظ بينهما. وكذلك يُستعمل فى الاعتقاد فى موضوع الصدق والكذب "الحق والباطل" والمعنى قريب من قريب.

و"الخبر" منه جزم، ومنه مستثنى، ومنه ذو شرط[2]. فالجزم مثل زيد قائم، وقد جزمت فى خبرك على قيامه؛ والمستثنى: قام القوم إلا زيدا فقد استثنيت زيدا ممن قام، وذو الشرط: إذا قام زيد صرت إليك، فإنما يجب مصيره إليه إذا قام زيد، فهو معلق بشرط. وكل واحد من هذه المعانى إما أن يكون مثبتا وإما أن يكون منفيا، فالمثبت: كقولك قام زيد، والمنفى ما قام زيد. والمستثنى من المثبت منفى، والمنفى إذا استثنى منه مثبت. وليس يخلو الخبر المثبت أو المنفى من أن يكون واجبا أو ممتنعا[3]

(١) سورة الأنعام.

(٢) ورد فى هامش الأصل هنا: "انظر كيف عد الجملة الشرطية من باب الخبر مع أنها مما لا يحتمل الصدق والكذب".

(٣) فى الأصل "أو منفيا".

أو ممكنا . فالواجب مثل حر النار [وثرها] [١] لأنه واجب فى طبعها . والممتنع مثل حرارة الثلج ، لأن ذلك ممتنع فى طبعه . والممكن مثل قام زيد لأنه قادر عليه وجائز أن يقع وألا يقع .

ثم لا يخلو "الخبر" بعد هذا كله من أن يكون عما مضى مثل قام زيد، أو عما يستقبل [٢] مثل يقوم زيد، أو عما أنت فيه مثل قائم زيد . ولا يخلو بعد ذلك من أن يكون عاما كليا، أو خاصا جزئيا ، أو مهملا . فكل ما ظهر فيه حرف العموم فهو عام، كقولك كل القوم جاءنا، وجميع المال أنفقت . ومنه قول الله عز وجل: "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ" [٣] فهذا لايجوز أن يراد به الخصوص لظهور حرف العموم فيه . وكل ما ظهر فيه حرف الخصوص فهو خاص ؛ كقولك : بعض المال قبضت ،ومن القوم من جاءنا ، ومثله قول الله عز وجل : "وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا" [٤] ، فهذا لا يجوز أن يراد به العموم لظهور حرف الخصوص فيه. [١٨] وما لم يظهر فيه حرف العموم ولا حرف الخصوص فهو مهمل؛ وقد يكون عاما وقد يكون خاصا ، واعتباره أن تنظر : فإن كان فى الأشياء الواجبة أو الممتنعة فهو عام، وإن كان لفظه واحدا كقول الله عز وجل: "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ" [٥] ، لأنه من الواجب أن يكون كل أحد على نفسه

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى هامش الأصل هنا : «فى هذا الكلام دليل على أن الفعل المضارع أولى بالمستقبل من الحال وهو خلاف مذهب الحذاق من النحاة»

(٣) سورة القصص .

(٤) سورة التوبة .

(٥) سورة القيامة .

بصيرة . وإن كان فى الممكن فهو خاص كقول الله عز وجل : "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ"[1] فهذا خاص ؛ وهذا لفظه على الجماعة لأن القول ممن قال والجمع ممن جمع من الأشياء الممكنة ، وجائز أن يقع منهم وألا يقع . فهذا أصل يعمل به[2] فى الخاص والعام والمهمل . ومن البين للعقل أن الأخبار المثبتة الجازمة فى الأمر الواجب ، ماضيها ، ومستقبلها ، وما أنت فيه منها ، وعامها ، وخاصها ، ومهملها ، صدق أجمع ، وأن منفيات ذلك كله كذب ، وأن مثبتات هذه الأخبار فى الأحوال التى قدمنا ذكرها إذا كانت فى الممتنع فهى كذب ومنفياتها صدق ، وأن جميع هذه الأخبار فى هذه الأحوال إذا جاءت فى الأمر الممكن قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً . وقد دللنا على جمل مايعرف به الصدق فى ذلك من الكذب ولم نستقصها لئلا يطول الكتاب بها وهى فى كتب المنطقيين مشروحة . فمن أراد علمها فليطلبها هنالك إن شاء الله .

واعلم أن من الأخبار أخباراً تقع بها الفائدة ولا يحصل منها قياس يوجب حكماً ، فمن ذلك الخبر المنفى ، بأنه يفيدنا انتفاء الشىء الذى ينفيه ولا يحصل منه[3] قياس يوجب فى نفوسنا حكماً ومثل ذلك قولنا : زيد غير قائم . فلم يحصل لنا من هذا القول غير العلم بانتفاء القيام عنه ، ثم لسنا ندرى على أى حال هو من قعود أو اضطجاع أو سجود . والخبر الذى بشرط لا يحصل فى النفس منه حكم ، لأنا إذا قلنا : إذا قام زيد صرت إليك ، [١٨م]

(١) سورة آل عمران .

(٢) فى الأصل "فيه"

(٣) فى الأصل : « منها » .

فليس يحصل فى نفس المخاطب علم بمصير المخاطب إليه لأنه معلق بقيام زيد الذى يجوز أن يقع وألا يقع .

والكذب إثبات شىء لشىء يستحقه أو نفى شىء عن شىء لا يستحقه والخلف فى القول إذا كان وعدا دون غيره ، وهو أن يعمل خلاف ماوعد فيقال أخلف فلان وعده ولا يقال كذب . وقد يُخلف الرجل الوعد بفعل ماهو أشرف منــــه ، فلا يقال أخلف وعده ، وذلك كرجل وعد رجلا بثوب فأعطاه ألف دينـار ، فقد تفضّل عليه ، وإن كان قد عمـل به خلاف ماوعده . فلا يسمى ذلك مخلفًا لوعده . وبذا تعلق من أبطل الوعيد فزعموا أن إنجاز الوعد كرم ، وأن إخلاف الوعيد عفو وتفضل ، وأنشدوا :

وكنت إذا أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

وعليهم فى ذلك كلام لأهل الحق [1] ليس هذا موضعه .

والنسخ فى الحكم تبديله برفعه ووضع غيره مكانه . وأصله فى اللغة وضع الشىء مكان غيره إذا كان يقوم مقامه . ومنه نسخ الكتاب ، لأنه وضع غيره موضعه وإقامتــه مُقامه ، ومنه قوله عز وجل : " مَانَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا " [2] . والنسخ لايكون فى الخبر ، لأن

---

(١) لعل المؤلف يشير بقوله : " وبذا تعلق الخ ... ... " إلى رأى أتباع أبى الحسن الأشعرى المتكلم المتوفى عام ٣٣٤ فى قولهم : " إن الخلف فى الوعيد كرم فيجوز من الله تعالى " وهو رأى مرجوح والمحققون على خلافه . ولعل المؤلف أراد " بأهل الحق " أصحاب هذا الرأى المقابل لرأى الأشعرية ، وهو الرأى السائد عند أهل السنة ، وينسب الى أتباع أبى منصور الماتريدى المتوفى بعد الأشعرى بقليل .

(٢) سورة البقرة .

الخبر إذا تبدل عن حاله بطل ، وفى بطلان قول الصادق وجوب الكذب لا محالة . وليس يجوز للصادق أن يخبر بخبر فيكون ضده ونقيضه صدقاً ، إلا أن يكون خبره الأول معلقاً بشرط أو استثناء . كما وعد الله قوم موسى عليه السلام دخول الأرض المقدسة إن أطاعوه فى دخولها ، فلما عصوه حرمها عليهم فلم يدخلها أحد منهم . وكما وعد قوم يونس العذاب إن لم يتوبوا [١٩] فلما تابوا كشف عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، وإلى هذا المعنى تذهب الشيعة فى البداء[1] على قبح هذه اللفظة وبشاعة موقعها فى الأسماع . فأما الخبر إذا لم يكن معلقاً بشرط ولا بشئ مما ذكرنا فلا يجوز أن يقع غيره موقعه فيكون صدقاً ؛ ولذلك قال الله عز وجل " مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ "[2] .

والمعارضة فى الكلام المقابلة بين الكلامين المتساويين فى اللفظ . وأصله من عارضت السلعة بالسلعة فى القيمة والمبايعة . وإنما تستعمل المعارضة فى التقية ، وفى مخاطبة من خيف شره فيُرْضَى بظاهر القول ويُتخلص فى معناه من الكذب الصراح ، وذلك مثل قول بعضهم وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله فى لبس السواد ، فقال : وهل النور إلا فى السواد ! وأراد نور العين فى سوادها فأرضى السائل ولم يكذب . وكقول

(١) البداء من عقائد الشيعة المعروفين بالمختارية ، أتباع المختار بن أبى عبيد الناجم بالعراق زمن عبد الملك بن مروان . ويقول الشهرستانى : " إنما صار المختار الى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام ؛ فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم " .

(٢) سورة ق .

شُرَيح [١] وقد خرج من عند عبد الملك [٢] فى الساعة التى مات فيها ، وقد سئل عن حاله ، فقال : تركته يأمر وينهى ؛ فلما فُحص عن ذلك قال تركته يأمر بالوصيّة وينهى عن النوح . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل مداراة الناس " . ومن المعارضة قول مؤذّن يوسف : " أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ [٣] " ، وهم لم يسرقوا الصُّوَاع [٤] وإنما عنى سرقتهم إياه من أبيه . وإذا كان الكذب إنما استقبح فى العقل وخرج عن شريعة العدل من أجل أنه مخالف لحقيقة الأشياء فى أنفسها من غير نفع يقصد به — حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكذب مُجانِبٌ للإيمان " وقال الله عز وجل : " وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " [٥] ، وسمّى الكاذبين ظَلَمة ولعنهم فقال : " وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ " [٦] — كان الكذب إذا أريد به الصلاح العام والمنفعة الحقيقية ، مطلقا [٧] ، وقد روى : " لا كذب إلا فى ثلاثة مواطن : كذب فى حرب ، وكذب فى إصلاح بين الناس ، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها به " [١٩م] وقال أمير المؤمنين رضى الله عنه : " الكذب كله إثم إلا ما نفعت به

---

(١) هو شريح بن الحارث الكندى ، ولاه عمر بن الخطاب قضاء الكوفة فأقام قاضيا قرابة خمسة وسبعين عاما . وكان ذكيا فهما توفى عام ٨٧ هـ وقد جاوز المائة سنة .

(٢) هو عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى المشهور حكم من عام ٦٥ الى عام ٨٦ هـ .

(٣) سورة يوسف . والعير القافلة .

(٤) الصواع الجام يشرب فيه .

(٥) سورة البقرة .

(٦) سورة هود .

(٧) أى جائزا ومباحا .

مسلماً أو دفعت به عن دين ". وليس يدخل كذب الإنسان لنفع نفسه وضر غيره فى هذا المعنى ، لأن النفع الحقيق هو الذى لا يقع به ضرر على وجه . وقد استعمل الناس أشياء ظاهرها كذب ولهم فيها معان تخرجها عنه ، كتكنيتهم الصبيّ بأبى فلان ، وهو لم يستحق أن يكون أبا ، وربما توفى قبل أن يولد له ، وربما ولد له فسمّى ولده بغير ما كنى به ؛ فهذا على ظاهره كذب ؛ ولذلك أبته رهبان النصارى وجماعة من أهل الأديان . والذى تقصد به العرب بذلك فى الصغير التفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ، وتقصد به فى الكبير وذوى الشرف التعظيم له عن التسمية باسمه . ولذلك ترى السلطان إذا شرّف وزيرا من وزرائه أو وليّاً من أوليائه كنّاه . وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته فى النفوس . وممن كان له كُنًى أمير المؤمنين [١] وحمزة [٢] رضوان الله عليهما ، ومن العرب عامر بن الطفيل [٣] وعمرو بن معد يكرب [٤] وغيرهما ، وذلك معروف فى أخبارهم . ومما استعملت فيه العرب التفاؤل تسميتهم أبناءهم أسدًا تفاؤلا بالشجاعة والنجدة والبسالة ، وكلبًا تفاؤلا بالحراسة والوفاء والمحافظة ، وأشباه ذلك مما سموا به . ومما قلبوه عن معناه وسموه بضدّ ما يستحقه على سبيل التفاؤل أيضًا "المفازة" وإنما هى مهلكة "والسليم" للسوع ، وإنما هو التالف . ومما أرادوا به التعظيم له

---

(١) هو الإمام على بن أبى طالب وكان يكنى بأبى حسن وأبى تراب .

(٢) هو عم النبى "صلعم" وكان يكنى بأبى يعلى وأبى عمارة ، كنى بابنيه .

(٣) من فرسان الجاهلية وشياطينها . كانت كنيته فى الحرب "أبو عقيل" وفى السلم "أبو على" .

(٤) من فرسان العرب فى الجاهلية والإسلام . شهد وقعتى اليرموك والقادسية ، وتوفى عام ٢١ هـ وكان يكنى بأبى ثور .

ولرؤسائهم أيضا اللقب كتلقيبهم بذى يزن [١] ، ومكلم الذئب [٢] ، [٢٠]
والباقر [٣] ، والصادق [٤] ، والرضا [٥] ، وأشباه ذلك . واللقب يجرى
على وجهين : أحدهما بالاشتقاق والتمثيل ، كتلقيبهم الغريض بالغريض [٦]
لتشبيههم إياه فى بياضه بالإغريض وهو الطلع [٧] ؛ والآخر بالاتفاق
كتلقيبهم بالقُلَيْزَر والدُّمحالك [٨] . وربما لقبوا الإنسان بغير لسان العرب ،
كتلقيبهم بالإخشيد [٩] و بِرْجِيس [١٠] . ومما جرى من الألقاب على جهة

---

(١) ملك من ملوك حمير ، ويزن اسم موضع باليمن أضيف إليه "ذو" مثل ذو رعين وذو جدن .

(٢) لقب جد قوم من خزاعة وكان جاء إلى النبى "صلعم" فحدثه أن الذئب أخذ من غنمه شاة فتبعه فلما غشيه بالسيف قال له : مالى ومالك تمنعنى رزق الله ! قال قلت : ياعجبا لذئب يكلم ! فقال : أعجب منه أن محمدا "صلعم" قد بعث بين ظهوركم وأنتم لا تتبعونه ، فبنوه يفتخرون بتكليم الذئب جدهم . وقد قال دعبل بن على يهجوهم :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم	فقد لعمرى أبوكم كلما الذيبا
فكيف لو كلم الليث المصور إذاً	أفنيتم الناس مأكولا ومشروبا
هذا السنيدى لا أصل ولا طرف	يكلم الفيل تصعيدا وتصويبا

(٣) بقر الشىء من باب منع شقه ووسعه ، الباقر لقب محمد بن على بن الحسين ، لقب بذلك لتبحره فى العلم .

(٤) لقب الإمام جعفر بن محمد الباقر .

(٥) لقب على بن موسى الكاظم وهو الامام الثامن من أئمة الشيعة الاثنى عشرية .

(٦) المراد بالغريض الأولى الشخص ، وبالثانية اللقب .

(٧) الطلع ما يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود والطرف محدد . أو هو ما يبدو من ثمرته فى أول ظهورها وهو المراد هنا .

(٨) لم نعثر على هذين اللفظين فى كتب اللغة التى بأيدينا وأغلب الظن أنهما مرتجلان .

(٩) لقب ملك فرغانة قديما .

(١٠) اسم المشترى بالفارسية وهو أحد كواكب المجموعة الشمسية .

التعظيم تلقيب الخلفاء أنفسهم ، ومن رفعوا منزلتـه من أوليائهم ، وذلك مشهور يغنى عن تمثيله . ومن اللقب ما جرى على سبيل الذم ، كتلقيبهم بذنب العبد، ورأس الكلب[1] ، وأنف الناقة قبل أن[2] يمدح بنوه بذلك.

فهذه أقسام العبارة التى يتساوى أهل اللغات فى العلم بها . فأما العرب فلهم استعمالات أخر من الاشتقاق ، والتشبيه ، واللحن ، والرمز ، والوحى والاستعارة ، والأمثال ، واللغز ، والحذف ، والصرف ، والمبالغة ، والقطع ، والعطف ، والتقـديم ، والتأخير ، والاختراع . ونحن نذكرها بوجيز من القول ليعرفها الناظر فى هـذا الكتاب ، ويحيط بأقسام معـانى كل منها إن شاء الله .

فمن ذلك :

باب الاشتقاق

وهو ما اشتق لبعض الألفاظ من بعض ، كما يشتق من الزيادة اسم زيد وزياد ومزيد ويزيد . وهو مأخوذ من شقك الثوب أو الخشبة ، فيكون كل جزء منهما مناسبًا لصاحبه فى المـادة والصورة .

قال : وللأسماء والأفعال فى اللغة العربيـة أبنية يُحتاج إلى معرفتها فى الاشتقاق والتصريف . فمن ذلك الأسماء . وأقل ما جاء منها على حرفين

---

(1) رأس الكلب شاعر من بنى نمير عاش فى زمن الخليفة المأمون .

(2) لقب رجل من بنى تميم ولتلقبه به حديث أورده صاحب الأغانى فى كتابه . وكان بنوه يغضبون من هذا اللقب حتى مدحهم الحطيئة الشاعر فقال:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصار بعد ذلك فخرالهم ومدحا

مثل "من" و "ما" وما أشبه ذلك . وليس يجوز أن يكون اسم أقل من حرفين ، لأن المتكلم لا يجوز له أن يبتدئ نطقه إلا بمتحرك ولا أن يقف إلا على ساكن ، فصار أقل الأسماء على حرفين لذلك . ولما أشبه ما كان [٢٠م] على هذا المثال حروف المعانى مُنع من التصرف ، وجعل مبنياً وأصل البناء على السكون إلا ما كان قبل آخره ساكن يحرّك لالتقاء الساكنين . فأمّا ما بنى منه على الفتح فلخفة الفتحة نحو كيف ، وأين ، وأمام . وأمّا ما بنى على الكسر فلأن الساكن إذا حُرّك حرك إلى الكسر مثل أمس وحَذَامِ [1] وأمّا ما بنى منه على الضم فما أعرب فى بعض الأماكن ، مثل قبل و بعد فإنك إذا أضفتهما أعربتهما ، و إذا أفردتهما بنيتهما على الضم ، فرقاً بينهما و بين ما لا يعرب على حال . وشرح هذا فى كتب اللغة وهو يُغنينا عن الإطالة فيه . ثم تَلِى ذلك بالثلاثى ، وهو ما بُنى على ثلاثة أحرف وله عشرة أمثلة : فَعُل مثل رَجُل ، وفَعَل مثل جَمَل ، وفَعِل مثل كَتِف ، وفُعْل مثل بُرْد ، وفَعْل مثل كَبْش ، وفِعْل مثل عِطْر ، وفُعُل مثل عُنُق ، و[فِعَل مثل عِنَب] [2] ، وفُعَل مثل صُرَد ، وفِعِل مثل إبِل . ثم تَلِى ذلك بالرباعى ، وهو على خمسة أبنية : فُعْلُل مثل جُلْجُل [3] ، وفَعْلَل مثل جَعْفَر ، وفِعْلِل مثل سِمْسِم ، وفِعْلَل مثل دِرْهَم ، وفِعَلّ مثل قِمَطْر [4] . ثم تَلِى بالخماسى وله أربعة أمثلة : فَعَلَّل مثل سَفَرْجَل ، وفِعْلَلّ مثل جِرْدَحْل [5] ، وفَعْلَلِل مثل

---

(١) اسم امرأة .

(٢) وفى الأصل "وفَعُل مثل عَضُد" وهو سهو من المؤلف لأن هذا البناء تقدم فى قوله "فَعُل مثل رَجُل" .

(٣) الجرس الصغير .

(٤) وعاء الكتب .

(٥) الوادى والضخم من الابل .

جَحْمَرِش (١) ، وفُعَلِّل مثل خُزَعْبِل (٢) وسائر الأسماء التى تتجاوز خمسة أحرف فإنما تلحقها زيادات ليست من نفس بناء الاسم ، مثل عنكبوت وأشباهه . والحروف التى تسمى حروف الزوائد عشرة وهى : الهمزة ، واللام ، والياء ، والواو ، والميم ، والتاء ، والنون ، والسين ، والألف ، والهاء (٣) .

وليس يأتى فى الأفعال السالمة شىء أقل من ثلاثة أحرف ولا أكثر من أربعة أحرف إلا ما لحقته الزيادة . وللثلاثى ثلاثة أبنية . وهى فعل مثل ضَرَب ، وفَعُل مثل كَرُم ، وفَعِل مثل عَلِم . فأما فُعِل لما لم يسمَّ فاعله كضُرب فليس بأصل وهو يدخل فى كل بناء . والرباعى السالم له بناء واحد وهو فَعْلَل مثل دَحْرَج . وإذا لحقته الزوائد صارت خمسة عشرَ بناءً. [٢١] فمن الأبنية التى تلحقها الزوائد تسعة أبنية فى أولها الهمزة وهى ألف الهمزة التى هى ألف الوصل ، وهى افتعل نحو افتقر ، واستفعل نحو استخرج ، وانفعل نحو انطلق ، وافعَنْلَل نحو اخْرَنْجَم (٤) وافْعَلّ نحو احمرّ ، وافعالّ نحو احمارّ (٥) ، وافعَوّل نحو اخروّط (٦) ، وافعَوْعَل نحو اغدَوْدن (٧) ، وافَعَلّل نحو اقشعرّ ، وبناء واحد فى أوله ألف القطع نحو أخرج ، وخمسة

(١) المرأة العجوز .

(٢) الباطل .

(٣) وهى التى يجمعها قولك : سألتمونيها .

(٤) أراد الأمر ثم رجع عنه .

(٥) احمر شيئا فشيئا .

(٦) أسرع فى السير .

(٧) المغدودن من الشجر الناعم المتثنى ومن الناس الشاب الناعم .

لا ألف فى أولها وهى : فَاعَلَ مثل قاتَل ، وتَفَاعل مثل تعاقد ، وفعّل مثل كَسّر ، وتفعّل مثل تكسر . وتَفَعْلَلَ مثل تدحرج . ولكل زيادة من هذه الزيادات معنى تحدثه فى الفعل إذا دخلته ، وذلك مثل قولنا : "خرج زيد" فهذا بلا زيادة يدلنا على خروج زيد بإرادته . وإذا قلنا : " أخرج عمرا زيد" فزدنا ألف القطع كان المخرج لعمرو غيره . وكقولنا : " قال زيد خيراً" ؛ فإذا بنينا من ذلك فاعَلَ قلنا : " قاول زيد عمراً " ، فصار الفعل من اثنين ، فعلُ كل واحد منهما بصاحبه كفعل صاحبه به وكقولنا " كسر زيد القدح " فيدل على وقوع الكسر به ؛ فاذا قلت : " كَسّرَ زيد القدح " دللت على ترداد الفعل وتكراره . وتقول : " اعتل زيد " فيدل على علته ، فإذا قلت : " تَعَالّ (١) زيد " دللت بذلك على أنه أظهر علة وليس بعليل . وكذلك كل مثال من هذه الأمثلة يفيد معنى ليس فى الآخر فإذا أردت أن تشتق من الانطلاق اسماً للفاعل قلت : " مُنطَلِقٌ " . وإن أردت أن تشتق منه اسماً للفعول قلت " مُنطَلَقٌ بِهِ " وإن أردت أن تشتق منه فعلا ماضياً قلت : " انطلق " . وإن أردت أن تشتق فعلا مستقبلا قلت : "ينطلق" . وإن أردت أن تأمر منه قلت: [٢١م] " انْطَلِقْ " . وإذا نهيت عنه قلت : " لَاتَنْطَلِقْ " . فهذا وجه الاشتقاق فى الأسماء والأفعال . فأما " الأمر " فكل فعل كان يأتى مستقبله متحركا فإنك تُسقط علامة الاستقبال منه وتُقرّ الباقى على بنائه ، فيكون أمراً ، مثل دَحْرج يدحرج ، الأمر منه " دَحْرِجْ " . وما كان ثانى مستقبله ساكناً فلست تصل إلى النطق به مبتدئاً فلابد من أن تُدخل الهمزة لتتوصل بها إلى النطق ، وتسمى ألفاً على المجاز لا على الحقيقة ، لأن الألف لاتكون

---

(١) فى الأصل : " تعالل " بفك الإدغام

إلا ساكنة . فما كان من الرباعى فهى ألف قطع ، مثل أخرج يخرج ، فتكون فى الأمر " أخرج " وهذه الألف مفتوحة على كل حال وما كان من ذلك فى الثلاثى فهو ألف وصل ، وحركتها فيما كان ثالثه مضموماً فى المستقبل بالضم ، نحو قولك فى يخرج " اُخْرُجْ " . وفيما كان ثالث مستقبله مفتوحا أو مكسوراً بالكسر نحو قولك فى يضرب " اِضْرِبْ " وفى نفع ينفع " اِنْفَعْ " . وليس يجىء فَعَلَ يَفْعَلُ إلا فيما كان موضع عين الفعل فيه أو لامه أحد حروف الحلق[1] فأما ماليس فيه فى هذين الموضعين حرف من حروف الحلق فإنما يجىء على يَفْعِل بالكسر و يَفْعُل بالضم إلا أحرفاً جئن نوادر ؛ منها : أَبَى يأبَى وركَن يركَن وقَلَى يقلَى وغشَى الليل يغشَى إذا أظلم . والمعتل من الأفعال ما كان فى موضع العين أو الفاء أو اللام حرف من حروف المد واللين ، وهى : الألف ، والياء ، والواو ولها أحكام فى التصريف إن أردنا أن نستوعبها طال بها الكتاب لكنا نذكر جُمَلا من ذلك تدل ذا القريحة على باقيها .

باب فيه ما اعتلت فاؤه

كل واو كانت فى الفعل فاء ، وكان الماضى منه على فعَل والمستقبل على يَفعِل ، فإنها تسقط فى المستقبل ، نحو وَعَدَ يَعِدُ ، ووَزَنَ يَزِنُ ، فإن كان [٢٢] مستقبله على يَفْعُل وماضيه على فَعُل صحت ، نحو وَضُوَ يوضُؤ . وإذا كان ماضيه على فَعِلَ ومستقبله على يَفْعَل صحت ، نحو وَلِعَ يَوْلَعُ ووَجِلَ يَوْجَلُ .

---

[1] وهى ستة : الهمزة والحاء والخاء والعين والغين والهاء .

باب فيه ما أعلت عينه

كل واو تكون عينا للفعل الذى على فَعَـل فإنها تجعل فى المـاضى ألفا لفتحة ما قبلها ، وتسكن فى المستقبل وتصح ، نحو قال يقول وعال يعول. وكذلك الياء إذا وقعت هذا الموقع ، نحو باع يبيع وكال يكيل . وتسقط الواو فى المفعول ، نحو مَقُول ومَكِيل ، والأصل مكيول ومقوول . وكل واو وياء تحركتا بأى حركة كانت وقبلهما فتحة ، فإنهما تُقلبان ألفا ، نحو طَالَ ونَامَ . وإذا اجتمعت الياء والواو وسبقت الأولى منهما بالسكون قلبت الواو وأدغمت فى الأولى . فما سبقت اليـاءُ الواوَ فيه قولهم سَـيِّد وأصله سَيْوِد . ومما سبقت فيه الواوُ الياءَ قولهم لويته لَيًّا وأصله لَوْيًا . وكل واو أو ياء وقعت[1] بعد ألف زائدة جاز أن تبدل همزة، نحو قائم وهائم . وكل واو انضمت وهى أول الفعل فهمزها جائز، نحو أُقِّتَتْ ووُقِّتَتْ وأُجِّلت[2] ووُجِّلت . وكل واو انكسرت فى أول الحرف فهمزها جائز نحو وشاح[3] وإشاح ووكاف وإكاف[4] .

باب ما أعلت لامه

كل واو وياء فى آخر الفعل سكنتا وانضم ما قبل الواو وانكسر ما قبل الياء صحتا ، نحو نعدو ونمضى . وإن كانت فى الأسماء وانكسر ما قبلهـا أسكنت فى الرفع والخفض وفتحت فى النصب ، نحو قاض ورأيت قاضيا

(١) وفى الأصل : وقعتا .

(٢) يلاحظ أن " أجلت " من الأجل لا من الوجل .

(٣) أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

(٤) إكاف الحمار ووكافه برذعته .

فإذا أضيف ذلك أو دخلته الألف واللام صحتا . وكل واو فى آخر الفعل قبلها ضمة أو ياء قبلها كسرة ، فإنهما تسكنان فى الرفع ، وتفتحان فى النصب ، وتحذفان فى الجزم ، نحو زيد يغزو ولم يغز ولن يغزو . وإن كانت فى آخره ألف ساكنة أقرت على سكونها فى الرفع والنصب ، وحذفت فى الجزم ، نحو يسعى ويخشى ، ولن يسعى ، ولم يسع .

باب فيه التشبيه

وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم . وكلما كان المشبِّه منهم فى تشبيهه ألطف ، كان بالشعر أعرف ؛ وكلما كان بالمعنى أسبق ، كان بالحذق أليق .

والتشبيه ينقسم قسمين : تشبيه للأشياء فى ظواهرها وألوانها وأقدارها كما شبهوا اللون بالخمر ، والقدّ بالغصن ، وكما شبه الله النساء فى رقة ألوانهن بالياقوت ، وفى نقاء أبشارهن بالبَيْض . قال تعالى : "كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ"[1] . وكما قال الشاعر :

كأنّ بَيْضَ نَعامٍ فى ملاحفها ... إذا اجتلاهن قيظُ ليلِه وَمِدُ[2]

وقال آخر :

أيا شِبهَ ليلَى لا تراعى فإننى ... لكِ اليوم من بين الوحوش صديقُ
فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها ... خلا أن عظم الساق منك دقيقُ

---

(1) سورة الصافات .

(2) شديد الحر .

وقال آخر :

وردتُ اعتسافًا والثُّريّا (١) كأنها على قِمَّة الرأس ابن ماء (٢) مُحَلِّقُ

ومنه تشبيه فى المعانى ، كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، والحسن الوجه بالبدر ، وكما شبّه الله أعمال الكافرين فى تلاشيها مع ظنّهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذى إذا دخله الظمآن الذى قد وعد نفسه به لم يجده شيئا . وكما شبّه من لاينتفع بالموعظة بالأصمّ الذى لايسمع ما يخاطَب به ، وشبّه من ضلّ عن طريق الهدى بالأعمى الذى لا يبصر ما بين يديه ، ومن هذا النوع من التشبيه (٣) قول الشاعر :

فإنّك كالليل الذى هو مُدركى وإن خِلتُ أن المنتأى عنك واسعُ [٢٢]

وقول (٤) الآخر :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلُجّتُه المعروفُ والجودُ ساحلُه

وهذا كثير فى القول وفى القرآن والشعر ، وما ذكرنا منه دليل على ما تركنا إن شاء الله .

---

(١) مجموعة نجوم متقاربة ضيقة المحل على شكل العنقود .

(٢) ابن ماء : كل ما لازم الماء من طير .

(٣) وفى الأصل : هذا النوع من التشبيه قال الشاعر .

(٤) وفى الأصل : وقال .

باب من اللحن

وأما اللحن فهو التعريض بالشيء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره ، كما قال الله عز وجل . " وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ "(١) . والعرب تفعل ذلك لوجوه، وهى تستعمله فى أوقات ومواطن . فمن ذلك ما استعملوه للتعظيم ، أو للتخفيف ، أو للاستحياء ، أو البُقيا ، أو للإنصاف ، أو للاحتراس . فأما ما يستعمل من التعريض للإعظام فهو أن يريد مريد تعريف مَنْ فوقه قبيحا إن فعله ، فيعرِّض له بذكر ذلك من فعل غيره ويقبّح له ماظهر منه ؛ فيكون قد قبّح له ما أتاه من غير أن يواجه به ؛ وفى ذلك يقول :

أَلَا رُبَّ مَنْ أطنبتُ فى ذمّ غيره لديه على فعلٍ أتاه على عمد
ليعلم عند الفكر فى ذاك أنما نصيحتُه فيما خطبتُ به قصدى

وأما التعريض للتخفيف فهو أن تكون لك إلى رجل حاجة فتجيئه مسلّما ولا تذكر حاجتك ، فيكون ذلك اقتضاءً له وتعريضا لمرادك منه ؛ وفى ذلك يقول :

أروحُ لتسليمٍ عليك وأغتدِى وحسبُك بالتسليم منّى تَقَاضِيَا

وأما التعريض للاستحياء فكالكناية عن الحاجة بالنجو والعَذِرة . والنجو المكان المرتفع ، والعذرات الأفنية ، وبالغائط وهو الموضع الواسع — فكنى عن الحاجة بالمواضع التى تقصد لوضعها فيها . وكما كنى عن الجماع

(١) سورة محمد .

بالسر، وعن الذكَر بالفَرْج، وإنما الفرج ما بين الرِّجلين. وكما تقول لمن [٢٣م] كذب: ليس هذا كما تقول.

وأما التعريض للبُقْيا فمثل تعريض الله عز وجل بأوصاف المنافقين وإمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفا لهم؛ ومثل تعريض الشعراء بالديار والمياه والجبال والأشجار بُقْيا على الأفهم وصيانةً لأسرارهم وكتمانا لذكرهم. ومنه قول الشاعر:

أيا أثلات القاع من بطن تُوضِحٍ   حنيني إلى أفيائكن طويلُ

ومنه قول الآخر:

ألا ياسَيالاتِ[1] الرحائل باللِّوَى   عليكن من بين السَّيال سلامُ

وهذا باب تكثر فيه الشواهد من الشعر وغيره. وقد صرَّح بعض الشعراء عن المراد به فقال:

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ   بأبياتكم مادرتُ حيث أدور

وأما التعريض للإنصاف فكقول الله عز وجل: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"[2]. ومنه قول حسان بن ثابت فى مناضلته بعضَ من هجا رسول الله عليه السلام:

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ   فشرُّكما لخيركما الفِداءُ

---

(١) واحدتها سيالة كسحابة ماطال من السمر، وواحدها سمرة شجر صغار الورق قصار الشوك جيدة الخشب والسمر مما ينبت بجزيرة العرب.

(٢) سورة سبأ.

وأما التعريض للاحتراس ، فهو ترك مواجهة السفهاء والأنذال بما يكرهون وإن كانوا لذلك مستحقين ، خوفاً من بوادرهم وتسرعهم ، وإدخال ذلك عليهم بالتعريض والكلام اللين. وفى ذلك يقول الله عز وجل: "وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ"(١) وقال لموسى وهارون فى فرعون : "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"(٢) .

باب فيه الرمز

وأما الرمز فهو ما أخفى من الكلام . وأصله الصوت الخفى الذى لايكاد يفهم، وهو الذى عناه الله عز وجل بقوله : "قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا"(٣) . وإنما يستعمل [٢٤] المتكلم الرمز فى كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم؛ فيجعل للكلمة أو الحرف اسما من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفا من حروف المعجم، ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه : فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا عن غيرهما . وقد أتى فى كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز شىء كثير، وكان أشدهم استعمالا للرمز أفلاطون . وفى القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر ؛ وقد تضمنت علم مايكون فى هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات ومدد كل صنف منها وانقضاءه ، ورمزت بحروف

---

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة طه .

(٣) سورة آل عمران .

المعجم وبغيرها من الأقسام كالتين والزيتون ، والفجر ، والعاديات ، والعصر ، والشمس . واطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن . ولذلك قال أمير المؤمنين رضى الله عنه : " ما من مائة تخرج إلى يوم القيامة إلا وأنا أعلم قائدها وناعقها وأين مستقرها من جنة أو نار" . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه سئل عن الم ، وحم ، وطسم ، وغير ذلك مما فى القرآن من هذه الحروف فقال : "ما أنزل الله كتابا إلا وفيه سر ، وهذه أسرار القرآن" . وهى حروف الجمل ، ومنها كان علىّ يعلم حساب الفتن . فهذه الرموز هى أسرار آل محمد ، ومن استنبطها من ذوى الأمر وقف عليها فعلم جليل ما أودعهم الله إياه من الحكمة . وقد ذكرنا مما تأدّى إلينا من تفسير ذلك فى كتابنا الذى لقبناه " بأسرار القرآن" ما أغنى عن إعادته ههنا . فإن رغبت فى النظر فيه فاطلبه تقف عليه إن شاء الله (١) .

باب من الوحى

وأما الوحى فإنه الإبانة عما فى النفس بغير المشافهة على أى معنى وقعت : من إيماء ، ورسالة ، وإشارة ، ومكاتبة . ولذلك قال الله عز وجل : "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً" (٢) .

[٢٤م]

(١) يلاحظ الفرق الجوهرى بين الرمز الذى كان أفلاطون يلجأ إليه فى عرض مبادئه وآرائه والرمز الذى يقول المؤلف بوجوده فى القرآن . والمؤلف هنا لاشك يجرى على نهج الشيعة فى الإغراق فى تأويل الكتاب والسنة والتحرر من قيود اللغة والاصطلاح .

(٢) سورة الشورى .

وهو على وجوه كثيرة ، فمنه " الاشارة " كما قال الله عز وجل : "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا"(١) ومنه " الوحى المسموع من الملك " ، كقول الله عز وجل : " إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ "(٢) . ومنه " الوحى فى المنام " ، وهو الرؤيا الصحيحة ، كما قال الله تعالى : "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ"(٣) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة " ، ومنه " الإلهام " كما قال الله عز وجهه "وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا"(٤) أى ألهمها ، ومنه " الكتاب " ، يقال منه وحَيْتُ الكتاب إذا كتبته . قال الشاعر :

ماهيّج الشوقَ من أطلال دارسة أضحتْ خلاءً كوحى خطّه الواحى

ويقال منه : وحيت أحى ، كما يقال : وفيت أفى . ومن الوحى " الإشارة باليد " ، و " الغمز بالحاجب " ، و " الإيماض بالعين " ، كما قال الشاعر :

وتوحى إليه باللحاظ سلامَها مخافةَ واشٍ حاضرٍ ورقيب

---

(١) سورة مريم .

(٢) سورة النجم .

(٣) سورة القصص .

(٤) سورة النحل .

وقال آخر :

أشارت بطرف العين خيفةَ أهلها إشارةَ محزونٍ ولم تتكلم

فأيقنتُ أن الطرفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المسلَّمِ

وقال آخر :

أشارت بأطراف كأن بنانَها أنابيبُ دُرٍّ قُمِّعتْ (١) بعقيق

وقالت : كلاكَ اللهُ فى كلِّ مشهد مكانك من قلبى مكانُ شقيق

باب من الاستعارة

وأما الاستعارة فإنما احتيج إليها فى كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر [٢٥] من معانيهم . وليس هذا فى لسان غير لسانهم ، فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره ، وربما استعاروا بعض ذلك فى موضع بعض على التوسع والمجاز فيقولون إذا سأل الرجل الرجل شيئا فبخل به عليه : " لقد بخَّله فلان " : وهو لم يسأله ليبخل وإنما سأله ليعطيه ، لكن البخل لما ظهر منه عند مسألته إياه ، جاز فى توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه . ومنه قول الشاعر :

* فللموت ما تلد الوالدة *

---

(١) أى جعل لها قمع بالفتح والكسر وهو ما التزق بأسفل التمرة ونحوها . والمراد أن هذه البنان اللطاف قد لونت أطرافها بصبغ أحمر من حناء أو ما شاكلها .

والوالدة إنما تطلب الولد ليعيش لا يموت ، لكن لما كان مصيره إلى الموت جاز أن يقال : للموت ولدته . ومثله فى القرآن : " وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً " (١) ؛ وذلك أنهم كانوا عند تلاوة القرآن قد حجبوا قلوبهم عن تفهمه وصدفوا بأسماعهم عن تدبره ، بجاز أن يقال على المجاز والاستعارة : إن الذى تلا ذلك عليهم جعلهم كذلك . والدليل على ماقلناه وأن حقيقة الأمر أنهم هم الفاعلون لذلك دون غيرهم ، قول الله عز وجل فى موضع آخر : " وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً " (٢) ومثل الأول قوله : " وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا " ــ الآية (٣) . لما غفل عن الذكر كان بمنزلة من بخل عند المسألة ، بجاز أن يقال للذى أذكره قد أغفله وقد أغفل قلبه ، كما جاز أن يقال للذى سأل ذلك فبخل عليه قد بخّله . ومن الاستعارة ما قدمناه من إنطاق الربع وكل ما لا ينطق إذا ظهر من حاله ما يشاكل النطق . ومما جاء من هذا النوع فى القرآن قوله : " يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ " (٤) . لما جاز أن تحتمل مزيداً من الكافرين [٢٥م]

---

(١) سورة الاسراء . والوقر ثقل السمع .

(٢) سورة نوح . واستغشوا ثيابهم تغطوا بها كراهة النظر إليه .

(٣) سورة الكهف .

(٤) سورة ق .

حسن أن يقال : قالت هل من مزيد ؟ وكذلك قوله : "ثُمَّ ٱسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" (١) ، وذلك لما كانتا عن إرادته من غير استصعاب عليه ولا عصيان له ، جاز أن يقال إنهما قالتا أتينا طائعين . وكذلك قوله : "فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ" (٢) ، لما كانت الإرادة من أسباب الفعل وكان وقوع الفعل يتلوها ، جاز لما قد كاد أن يقع وقرب وقوعه ، أن يقال أراد أن يقع ومثل ذلك قول الشاعر :

* امتلأ الحوضُ وقال قَطْنِى *

أى لما لم تكن فيه سعة لغير ما قد وقع فيه من الماء جاز على الاستعارة أن يقال : قد قال حسبي ! وهذا شائع فى اللغة كثير .

باب فى الأمثال (٣)

فأما الحكماء والأدباء فلا (٤) يزالون يضربون الأمثال ، ويبيِّنون للناس تصرف الأحوال ، بالنظائر والأشباه والأشكال ؛ ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً ، ولذلك قال الله عز وجل : "وَلَقَدْ

---

(١) سورة فصلت .

(٢) سورة الكهف .

(٣) جمع مثل ، وقد عرفوه بأنه قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول . فمواعيد عرقوب مثلا علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

(٤) فى الأصل : "فلم".

ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل "[١] . وقال : " وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال "[٢] .

وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته ، والمثل مقرون بالحجة . ألا ترى أن الله عز وجل لو قال لعباده : إني لا أشرك أحدا من خلائق في ملكي ، لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدل على العلة فيه ووجه الحكمة في استعماله ؛ فلما قال : " ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم "[٣] ، كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به أنه لا شريك له في ملكه من خلقه ، لأنهم عالمون [أنهم[٤]] لا يقرون أحداً من عبيدهم [٢٦] على أن يكون فيما ملكوه مثلهم ، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه ، فإن الله عز وجل أولى بأن يتعالى عن ذلك . فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ونطقت ببعضه على ألسن الوحش والطير[٥] . وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونةً بذكر عواقبها ، والمقدمات مضمومةً إلى نتائجها ، وتصريف القول

---

(١) سورة الإسراء .

(٢) سورة إبراهيم .

(٣) سورة الروم .

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٥) كما في كتاب كليلة ودمنة مثلا .

فيها ، حتى يتبين لسامعه ما آلت إليه أحوال أهلها عند لزومهم الآداب أو تضييعهم إياها . ولهذا بعينه قص الله علينا أقاصيص من تقدمنا ممن عصاه وآثر هواه نخسر دينه ودنياه ؛ ومن اتبع رضاه بفعل الخير والحسنى عقباه وصير الجنة مثواه ومأواه ؛ وقال فى مثل ذلك " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " (١) .

باب من اللغز

وأمَّا اللغز فإنه من ألغز اليربوعُ ولغز إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يَمْنَةً ويَسْرَةً لِيُعمِّى بذلك على طالبه . وهو قول استعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجاة . والفائدة فى ذلك فى العلوم الدنيوية رياضة الفكر فى تصحيح المعانى ، وإخراجها على المناقضة والفساد إلى معنى الصواب والحق ، وقدح الفطنة فى ذلك واستنجاد الرأى فى استخراجه (٢) . وذلك مثل قول الشاعر :

رُبَّ ثورٍ رأيتُ فى جُحرِ نملٍ ونهارٍ فى ليلةٍ ظلماء

والثور ههنا : القطعة من الأقِط (٣) ، والنهارُ : فرخ الحُبارى (٤) . فإذا استُخرج هذا صحَّ المعنى ، وإذا حُمل على ظاهره كان محالا . وكذلك قال الشاعر :

فأصبحتُ والليلُ لى ملبسٌ وأصبحتِ الأرضُ بحراً طمى

(١) سورة القصص .

(٢) فى الأصل : " واستنجاد الرأى وفى استخراجه "

(٣) الأقط شىء مثل الجبن يتخذ من اللبن المخيض ، والقطعة منه أقطة .

(٤) الحبارى طائر طويل العنق رمادى اللون فى منقاره بعض طول . قال الدميرى : " وأهل مصر يسمون الحبارى " الحبرج " وفرخ الحبارى ولده .

[٢٠٦م] فأصبحتُ : أشعلت المصباح ، ولو حُمل على الصبح لتنافى القول وفسد .
والفائدة فى استعمال ذلك فى الدين المعارضة التى ذكرناها وقلنا إن للإنسان
استعمالها عند التقيَّة حتى يخرج بها الكلام عن الكذب باشتراك الاسم .
ومن هذه الأسماء المشتركة : المجنون الذى به الخَبَل ، والمجنون الذى قد
جَنَّه الليل ؛ والنبيذ الذى يشرب ، والنبيذ الصبى المنبوذ ؛ والعَلىُّ المرتفع ،
والعلىّ الفرس الشديد ؛ والجرح المصدر من الجراح ، والجرح الكسب ؛
والطعن بالرمح ، والطعن فى العِرْض ؛ والبطن ضد الظهر ، والبطن
من العرب ؛ والفخذ العضو ، والفخذ من القبيلة ؛ والبعل الزوج ، والبعل
النخل الذى يشرب ماء السماء ؛ واليد الجارحة ، واليد النعمة ، واليد
القدرة — وأشباه هذا كثير ، وقد جمعه أهل اللغة . وممن جوّده وجمع
أكثره ابن دُريد[١] فى كتاب "الملاحن" . فان أردته فاطلبه فيه إن شاء الله .

باب من الحذف

وأما الحذف فإن العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير
القول إذا كان المخاطب عالماً بمرادها فيه ، وذلك كقوله عز وجل :
"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"[٢] وسكت
عن تمام الكلام لعلم المخاطب به ، فكأن تقدير ذلك : إذا قيل لهم اتقوا
ما بين أيديكم وما خلفكم استكبروا وتمادوا وعتوا . وكذلك قوله : "وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ"[٣] حذف ما بعده لعلم

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصرى الأزدى . ولد عام ٢٢٥ وتوفى عام ٣٢١ هـ وهو من أئمة اللغة والأدب وقد طبع كتاب الملاحن حديثا بمصر .

(٢) سورة يس .

(٣) سورة النور

المخاطب به ، فكأن تقديره: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعذبكم بما فعلتم

ومن ذلك قول الشاعر [١] :

أجِدَّكَ لو شيءٌ [٢] أتانا رسوله سواكَ ، ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لدفعناه ولكن لم نجد لك مدفعاً، فحذف اكتفاء بعلم المخاطب بما أراد. [٢٧

ومثله قوله [٣] :

فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى بنا بطنُ حِقْفٍ ذِي قِفافٍ [٤] عقنقلِ

هذا كثير فى كلام العرب ؛ وإذا مرّ بك عرفته إن شاء الله.

باب من الصرف

وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ، ومن الواحد إلى الجماعة ، كقوله عز وجل : "حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ" [٥]. وكقول الشاعر :

وتلك التى لا وصلَ إلاّ وصالُها ولا صرمَ إلاّ ما صرمتِ يَضيرُ

وقال آخر :

يالهفَ نفسى ! كان جدّة خاله وبياضُ وجهك للترابِ الأعفرِ [٦]

---

(١) بإزاء هذا اللفظ فى الأصل : هو امرؤ القيس .

(٢) أى استحلفك بجدك لو شخص الخ .

(٣) بإزاء ذلك فى الأصل : هو امرؤ القيس

(٤) بهامش الأصل : "ركام" بدل "قفاف" وكتب فوقه : "معا" يشير إلى أن فيه الروايتين، والعقنقل الكثيب .

(٥) سورة يونس .

(٦) الأعفر من الظباء الأبيض ليس بالشديد البياض .

باب من المبالغة

وأما المبالغة ، فمن شأن العرب أن تبالغ فى الوصف والذم ، كما من شأنها أن تختصر وتوجز، وذلك لتوسعها فى الكلام واقتدارها عليه .ولكل من ذلك موضع يستعمل [فيه] [1] وسيمر بك فى مواضعه إذا صرنا إلى ذكره إن شاء الله .

والمبالغة تنقسم قسمين: أحدهما فى اللفظ والآخر فى المعنى. فأما المبالغة فى اللفظ فتجرى مجرى التأكيد ، كقولنا : " رأيت زيداً نفسه " ، و " هذا هو الحق بعينه " فتوكد زيداً بالنفس ، والحق بالعين ؛ وإن كان قولك : " هذا زيد " و " هذا هو الحق " قد أغنياك [2] عن ذكر النفس والعين ، ولكن ذلك مبالغة فى البيان. ومنه قول الشاعر :

ألا حَبَّذا هند وأرضٌ بها هندُ وهند أتى من دونها النأىُ والبعدُ

وأما المبالغة فى المعنى فاخراج القول على أبلغ غايات معانيه ، كقوله عز وجل : " وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ " [3] ، وإنما قالوا : إنه قد قتّر علينا ، فبالغ الله عز وجل فى تقبيح قولهم فأخرجه على غايات الذم لهم . [٢٧م]
ومن المبالغة فى المعنى قول الشاعر :

وفيهنّ ملهًى للّطيف ومنظر أنيقٌ لعين الناظر المتوسِّم

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) يلاحظ أن "أغنياك" مسند الى "قولك" وهو مفرد وثنى باعتبار المقول .

(٣) سورة المائدة .

فلم يرض أن يكون فيهن ملهى وإن كان ذلك مدحاً لهن حتى قال "للطيف"، لأنّ اللطيف لا يلهو إلا بفائق، وقال: "ومنظر أنيق" وهذا فى الوصف مجزئ، فلم يكتف به حتى قال: "لعين الناظر المتوسم" لأن الناظر إذا كرر نظره وتوسم تبينت له العيوب عند توسّمه وتكراره نظره، ولذلك قال الشاعر:

يزيدك وجهُه حسناً إذا مازدته نظـراً

ومن هذا المعنى قول الشاعر أيضا:

فلمّا صرّح الشرّ فأمسى وهو عُرْيانُ

مَشَينا مِشيةَ الليث غداوالليث غضبانُ

فلم يرض بتصريح الشر حتى عَرّاه من كل مايستره، ولم يرض بمشية[1] الليث حتى جعله غضبان. وأشباه هذا كثير فى القرآن.

باب فى القطع والعطف

وهو واضح لمن أراد أن يعرفه، وهو فى القرآن كثير. فمما قُطع الكلام فيه وأُخذ فى فن آخر من القول ثم عطف عليه بتمام القول الأوّل قوله: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ" — إلى آخر الآية[2] ومثله: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ [٢٨

(١) فى الأصل: "بمشيته حتى جعله ...".

(٢) سورة النساء.

عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ" [١] ، ثم قطع وأخذ فى كلام آخر فقال : "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" ثم رجع إلى الكلام الأول فقال: "فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [٢] ومثل ذلك ما حكاه عن لقمان فى وصيته لابنه إذ قال له : "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" [٣] . ثم قطع وأخذ فى فن آخر فقال : "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ" إلى قوله : "فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ". ثم رجع إلى تمام القول الأول فى وصية لقمان فقال : "يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" إلى آخر الآيات .

---

[١] سورة المائدة . الميتة ما فارقه الروح من غير تذكية . أى من غير ذبح شرعى . والدم أى الدم المسفوح . وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الأمعاء ويشوونه . وما أهل لغير الله به عند ذبحه . والمنخنقة التى ماتت بالخنق . والموقوذة المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت . والمتردية التى تردت من علو أو فى بئر فماتت . والنطيحة التى نطحتها أخرى فماتت . وما أكل السبع أى ما أكل منه السبع فمات . إلا ما ذكيتم إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة من ذلك والنصب واحد الأنصاب وهى الأصنام أو حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة . وأن تستقسموا بالأزلام أى وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح . وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها "أمرنى ربى" وعلى الآخر "نهانى ربى" والثالث غفل . فإن خرج الآمر مضوا على ذلك . وإن خرج الناهى تجنبوه . وإن خرج الغفل أجالوها ثانيا . فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم بالأزلام . وقيل هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصباء المعلومة . والأزلام جمع زلم كجمل .

[٢] سورة المائدة مخمصة : مجاعة غير متجانف لإثم أى غير منحرف إليه بأن يأكلها تلذذا أو متجاوزا حد الرخصة .

[٣] سورة لقمان .

باب فيه التقديم والتأخير

وأما التقديم والتأخير فكقوله : "وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى"[1] أراد ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما . وكقوله : "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ"[2] أراد مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض ولا يستطيعون شيئا . وفيما ذكرنا دليل على مالم نذكره إن شاء الله .

باب من الاختراع

وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه فما سموه باسم من عندهم ، كتسميتهم الباب فى المساحة باباً[3] والجريب جريبا[4] والعشير عشيرا[5] ومنه ما أعربته وكان أصل اسمه أعجمياً كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم ، والشِّطْرَنج المأخوذة من لسان الفرس[6] ، [٢٨م] والسجل المأخوذ من لسان الفرس أيضاً . وكل من استخرج علماً أو استنبط شيئًا وأراد أن يضع له اسما من عنده، و يواطئ عليه من يخرجه إليه ، فله أن يفعل ذلك . ومن هذا الجنس اخترع النحويون اسم الحال

---

(١) سورة طه .

(٢) سورة النحل .

(٣) و(٤) و (٥) الباب فى الحدود والحساب ونحوه الغاية . والجريب مقياس ومكيال فهو باعتباره مقياسا ٣٦٠٠ ذراع مربعة أو ٢٤٠٠ متر مربع كما قدره المستشرق هوار فى كتابه عن فارس القديمة . والعشير $\frac{1}{100}$ من الجريب مطلقا .

(٦) فى الأصل بعد الفرس هنا . « أيضا » وهى مما يأباه السياق .

والزمان ، والمصدر ، والتمييز ، والتبرية [١] واخترع الخليل [٢] العروض فسمى بعض ذلك : الطويل ، وبعضه المديد ، وبعضه الهزج ، وبعضه الرجز . وقد ذكر أرسطاطاليس ذلك وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به .

باب تأليف العبارة

واعلم أن سائر العبارة فى كلام العرب إما أن يكون منظوماً وإما أن يكون منثورا . والمنظوم هو الشعر ، والمنثور هو الكلام .

والشعر ينقسم أقساماً . منها : " القصيد " وهو أحسنها وأشبهها بمذاهب الشعراء . ومنها : " الرجز " وهو أخفها . والراجز : الساقى الذى يسق الماء ، وكان الأصل فى الأراجيز أن يرتجز بها الساقى على دلوه إذا مدها ، ثم أخذت الشعراء فيه ، فلحق بالقصيد . ومنها " المسمَّط " وهو أن يأتى الشاعر بخمسة أبيات على قافية ، ثم يأتى ببيت على غير تلك القافية ، ثم يأتى بخمسة أبيات على قافية أخرى ، ثم يعود فيأتى ببيت على قافية البيت الأول ، وكذلك إلى آخر الشعر ، ومنه " المُزْدَوج " وهو ما أتى على قافيتين إلى آخر القصيدة . وأكثر ما يأتى وزنه على وزن الرجز . وفى الشعر والنثر جميعا

---

(١) « لا » التى تكون للتبرئة هى التى تعمل عمل « ليس » ولها عندهم وجوه فى نصب المكرر والمفرد وتنوين ما ينون وما لا ينون .

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض ومعد سيبويه بما ضمنه كتابه المشهور فى النحو . مات بالبصرة عام ١٧٠ هـ

تقع البلاغة والعى والإيجاز والإسهاب . إلا أن البلاغة والإيجاز إذا وقعا فى الشعر والقول قضى للشاعر بالفَلَج[١] والعى والإسهاب إذا وقعا فى الشعر والقول كان الشاعر أعذر ، وكان العذر عن المتكلم أضيق . وذلك لأن [٢٩] الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية ، فالكلام يضيق على صاحبه ، والنثر مطلق غير محصور ، فهو يتسع لقائله . فمما تساوى القول والشعر فيه من هذا الفن فحكم للشاعر فيه بالفضل قول بعضهم فى بعض كتب الفتوح : " فكانت معاقله تعقله ، وما يُحرزه يُبرزه " ، وقال الشاعر :

وإن يَبْنِ حيطاناً عليه فإنما ... أولئك عُقَّالاتُه لا معاقُله

وقيل لبعضهم وقد أطال الوقوف فى الشمس ، فقال : الظلَّ أريد . قال الشاعر :

تقول سُلَيمى لو أقمت سررتنا ... ولم تدرِ أنى للمُقام أطوفُ

وأشباه هذا كثير . فأما عذرهم للشاعر فى التقصير ، واغتفارهم له العيوب ، فقد جوزوا من قَصر الممدود ، وحذف الحركة ، وتخفيف الهمزة وصرف مالا ينصرف ، مالم يجيزوه للمتكلم . وأجازوا له أيضاً فى الوزن استعمال الزحاف [٢] والخرم [٣] ، وفى القافية الإكفاء [٤] ، والإقواء [٥] ، والسِّناد [٦] ، والإيطاء [٧] ، والتضمين [٨] ، وكل ذلك عيوب [٩] .

---

(١) الظفر والفوز .

(٢) و(٣) الزحاف تغيير يلحق أسباب الأجزاء فى حشو البيت . كأن تصير فاعلن فعلن . والخرم حذف أول الوتد المجموع من أول البيت فيصير فعولن عولن " فعلن " .

(٤) و(٥) و(٦) و(٧) و(٨) و(٩) الإكفاء أن يؤتى فى البيتين من القصيدة بروى متجانس فى المخرج لافى اللفظ نحو فارس وقارص . والإقواء تحريك المجرى بحركتين مختلفتين =

وعلى من استعمل البديهة وقال الشعر على الهاجس [١] والسجية أقلّ عيبا منها على من استعمل الروية والتفكير وكرر النظر والتدبر . وقد ذكر الخليل وغيره من أوزان الشعر وقوافيه ما يُغني من نظر فيه ويغنينا عن تكلّف شرح ذلك له ، إذ كنا نرى أن تكلف ما قد فُرغ منه عيب لا فائدة فيه . إلا أنا نذكر جملة ذلك من باب استخراج المُعَمَّى تدعو الضرورة إلى ذكرها فيه إن شاء الله . [٢٩م]

وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها ، وذكر الجاحظ كثيراً مما وُصفت به ، وكل وصف منها يقصر عن الإحاطة بحدّها . وحدها عندنا أنه القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام وحسن النظام ، وفصاحة اللسان . وإنما أضفنا إلى الإحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لأن العاميّ قد يحيط قوله بمعناه الذى يريده ، إلا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله ، فلا يكون موصوفاً بالبلاغة . وزدنا فصاحة اللسان ، لأن الأعجمى واللحّان قد يبلغان مرادَهما بقولهما ، فلا يكونان موصوفين بالبلاغة . وزدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتى على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه وتَصْيير كل واحدة منها مع ما يشا كلها فلا يقع ذلك موقعه . فمما أتى فى نهاية النظم قول أمير المؤمنين رضى الله عنه فى بعض

= غير متباعدتين مثل الكسرة والضمة فى قولك فوارس ومدارس . والسناد عيب يلحق القافية لكن قبل رويها مثل يحمل ويخامل ؛ ولا توصه ولا تعصه .

والإيطاء إعادة اللفظة ذاتها بمعناها إلا أنهم أجازوا ذلك بعد سبعة أبيات . والتضمين تعلق القافية بالبيت الذى يليها وقوله "وكل ذلك عيوب" يشير إلى الإكفاء والإقواء الخ ؛ لا إلى الزحاف والخرم .

(١) الهاجس الخاطر .

خطبه : „ أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدّد ، وزخرف ونجّد ، وبنى وشيّد ؟ “ فاتبع كل حرف بما هو من جنسه وما يحسن معه نظمه . ولم يقل : أين من سعى ونجد ، وزخرف وشيد ، وبنى وعدّد ؟ ولو قال ذلك لكان كلاما مفهوما ومن قائله مستقيما ، وكان مع ذلك فاسد النظم قبيح التأليف .

والشاعر من شَعَرَ يشعُرُ شعرًا وهو شاعر ، والشعر المصدر . ونظيره الكافل ؛ يقال : كفل يكفل كفلاً وهو كافل ؛ ومنه سمّى ذو الكفل[1] ذا الكفل . وإنما سُمّى شاعرا لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره . وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى . وقد كره قوم قول الشعر واصطناعه . وإنما الشعر كلام موزون؛ فما جاز فى الكلام جاز فيه ، وما لم يجز فى ذلك لم يجز فيه . وقد سمع [٣٠] رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر واستنشده وأثاب عليه وأُنشد فى مسجده وعلى منبره وقال لحسان : „أهجُ قُرَيشًا ومعك رُوحُ القدُس “[2] وقال : „إن من الشعر لحُكمًا “ . ومما احتج به من كرهه ما رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : „ لَأَنْ يمتلئ جوفُ أَحدِكم قَيْحًا حتى يَرِيَه خيرٌ[3] له من أن يمتلئ شعرا “ وما روى عنه فى شأن امرئ القيس وقوله : „ ذلك رجل مذكور فى الدنيا منسىّ فى الآخرة ، يأتى يوم القيامة

---

(١) اسم نبي من الأنبياء .

(٢) روح القدس جبريل عليه السلام .

(٣) يقال : ورى القيح جوفه (وزان وعى) اذا أفسده .

ومعه لواء الشعراء حتى يوردهم النار". وهذا القول منه عليه السلام خاص فى كفار الشعراء . والدليل على ذلك إجماع الأمة على أن حسان بن ثابت، وكعب بن زهير وغيرهما من شعراء المؤمنين الذين كانوا يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشعارهم ، ويجاهدون معه بألسنتهم وأيديهم، خارجون عن جملة من يرد النار مع امرئ القيس . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بذلك [لأنه][1] جاهد معه بيده ولسانه ، وأقعد كعب بن زهير على منبره وأنشد :

بانت سعادُ فقلبى اليوم متبولُ[2]

حتى إذا بلغ إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاءُ به وصارم من سيوف الله مسلول

أومأ إلى الناس باستماع قوله . وقد قلنا : إن كل مهمل من الأخبار إذا كان فى الأمر الممكن فهو خاص ، وهذا فى الممكن فهو خاص . ويزيد ما قلناه وضوحا قول الله عز وجل: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ"[3] . ثم بين مراده وأنه خاص فى الكفار منهم ومن تعدّى الحق وفسق ، فقال : "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ"[4] . وأما قوله : "لأن يمتلئ

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) متيم طيل .

(٣) سورة الشعراء .

(٤) سورة الشعراء .

جوف أحدكم قيحاً حتى يريَه خير له من أن يمتلئ شعراً " فإن المعقول من معنى الامتلاء أن يشغل المالئ للشيء جميع أجزائه حتى لا يكون فيها فضل لغيره . وإن كان هذا هكذا فإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا القول من امتلأ جوفه من الشعر حتى لا يكون فيه موضع للذكر ولا لحفظ القرآن ولا لعلم الشرائع والأحكام والسنة فى الحلال والحرام . وهذا ظاهر لمن تدبره . ويزيده وضوحا ما رُوى عنه عليه السلام من أنه سمع قوماً يقولون فلان علّامة ، فقال : " وما هو علّامة ؟ " فقيل : يعلم أيام العرب وأشعارها وأنسابها ووقائعها ، فقال : " ذلك علم لا ينفع مَن علِمه ولا يضر مَن جَهِله ، وإنما العلم آية محكمة ، أو فريضة عادلة ، أو سنة قائمة ، وما خلاهن فهو فضل " ولم يزل الشعر ديوان العرب فى الجاهلية لأنهم كانوا أميين ، ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهل الحيرة ومن تعلّم منهم ، فإنما حُفِظَتْ مآثِرُها ، وأخبارُ أوائلها ، ومذكورُ أحسابها ووقائعها ، ومستحسن أفعالها ومكارمها — بالشعر الذى قيل فيها ونقلته الرواة عن شعرائها . ولولا الشعر ما عُرِف جود حاتمِ طيء [1] ، وكعب بن مامة [2] وهَرِم بن سِنان [3] ، وأولاد جَفْنة [4] لكن الذى قيل فيهم من الشعر أشاد بذكرهم وبيّن عن فخرهم ، فقال الفرزدق فى حاتمِ طيء :

على ساعةٍ لو أنّ فى القوم حاتماً ... على جوده ضنّت بها نفسُ حاتمِ

---

(١) و (٢) و (٣) من أجاويد العرب وساداتهم فى الجاهلية ، وبهم تضرب الأمثال فى الجود والإيثار .

(٤) هم ملوك العرب بنى الغساسنة ، قامت لهم دولة ببادية الشام فى أواخر القرن الخامس الميلادى واضمحلت قبيل الفتح الإسلامى للشام . وجفنة قبيلة من الأزد ينسبون اليها .

وقال زُهيرٌ فى هَرِم :

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاّته هرِماً ... يلق السماحة منه والندى خُلُقا

لو نال حىٌّ من الدنيا بمكرمةٍ ... أُفْقَ السماء لنالت كفُّه الأفقا

وقال آخر :

[٢١] فما كعبُ بن مامة وابن سُعْدَى ... بأجود منك يا عمر الجوادا(١)

إلى غير هذا مما قَيَّدَ على الأبطال ذكر شجاعتهم ، وشهر فى الناس ذكرهم وعرفنا به غَنَاءهم فى مواقعهم ، وآثارَهم فى وقائعهم ، فقال عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقْمَها ... قولُ الفوارس : ويْكَ عنتر أقْدِم !

قال آخر :

وفككنا غُلَّ آمرئ القيس عنه ... بعد ما طال حبسهُ والعناء(٢)

وقال آخر :

أليسوا بالألى قسَطوا(٣) قديماً ... على النعمان وابتدروا السِّطاعا(٤)

وهم وردوا الكُلاَبَ(٥) على تميمٍ ... بجيش يبلع الناسَ ابتلاعا

---

(١) البيت من شعر ليزيد بن الحكم بن أبى العاص الثقفى ، قاله فى عمر بن عبيد الله ابن معمر ، وكان سخيا شجاعا ممدحا . وكلاهما من متقدمى رجال الدولة الأموية .

(٢) هذا البيت من معلقة الحارث بن حلزة اليشكرى . وكانت غسان أسرت امرأ القيس ابن المنذر ملك الحيرة يوم قتل المنذر . فأغارت بكر على بعض بوادى الشام فقتلوا ملكا من ملوك غسان واستنقذوا امرأ القيس .

(٣) قسطوا جاروا ومالوا عن الحق . وهو من باب ضرب .

(٤) السطاع ككتاب أطول عمد الخباء .

(٥) الكلاب : بضم الكاف ماء بين الكوفة والبصرة . حدثت عنده وقعة مشهورة فى الجاهلية بين بكر وتغلب تعرف بيوم الكلاب . وكانت الغلبة فيها لتغلب على بكر .

وقد ذكر أرسطاطاليس [١] الشعر فى "كتاب الجدل" فجعله حجة مقنعة إذا كان قديمًا ، واحتجّ فى كثير من كتب السياسة بقول أميرس [٢] شاعر اليونانيين . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أحقّ بالتقدمة وأولى بالاتّباع ، وقد قال : "إن من الشعر لحكمًا" . ورُوى عن بعض السلف : "أعربوا القرآن والتمسوا غريبه فى الشعر" وقيل : "حسبُك من الأدب أن تَروى الشاهد والمثل" وقال معاوية لابنه : "يابنىّ ، اْروِ الشعر وتخلّق به ، فلقد هممتُ يوم صفّين بالفِرار مراتٍ ، فما ردّنى عن ذلك إلا قول ابن الإطْنَابة [٣] :

أبتْ لى هِمّتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضَرْبى هامة البطل المشيح [٤]
لأدفع عن مكارِمَ صالحاتٍ ... وأحمى بعد عن عِرْضٍ صحيح"

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدِّب ولده فى وصيّته إياه : "وعلّمهم الشعر يَمْجُدوا ويَنْجُدوا" . [٣١م]

وللشعراء فنون من الشعر كثيرة تجمعها فى الأصل أصناف أربعة . وهى : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو . ثم يتفرع من كل صنف

(١) من أكبر فلاسفة اليونان ومؤدب الاسكندر المقدونى . عاش من سنة ٣٢٢ الى ٣٨٤ ق . م .

(٢) كان الرأى السائد عن أوميرس أنه أعظم شعراء اليونان القدماء وصاحب المنظومتين الكبيرتين ، الإلياذة ، والأوديسيا ، وأنه عاش فى القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد ولكن البحث الحديث يذهب الى أن المنظومتين المذكورتين من نظم عدة شعراء تتابعوا على نظمها فى زمن غير قصير .

(٣) هو عمرو بن الإطنابة الخزرجى ، كان شاعراً فارساً جاهلياً مشهوراً .

(٤) أى الجاد الحذر .

من ذلك فنون ، فيكون من المديح المراثى ، والافتخار ، والشكر ، واللطف فى المسألة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه . ويكون من الهجاء : الذم ، والعتب ، والاستبطاء ، والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانسه . ويكون من الحكمة : الأمثال ، والتزهيد والمواعظ ، وما شاكل ذلك وكان من نوعه . ويكون من اللهو : الغزل ، والطَّرْد (١) ، وصفة الخمر ، والمجون ، وما أشبه ذلك وقاربه . فمما أجمعوا على استحسانه من المديح :

قوله :

على مكثريهم حقُّ من يعتريهمُ ... وعند المقلِّين السماحةُ والبَذْلُ (٢)

وقال آخر :

يجودُ بالنفس إذ ضَنَّ البخيلُ بها ... والجودُ بالنفْس أقصَى غاية الجودِ

ومن المراثى قول الخنساء (٣) :

ولولا كثرة البـاكين حولى ... على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يبكون مثلَ أخى ولـكن ... أُعَزِّى النفس عنه بالتَّأسِّى (٤)

---

(١) أى الصيد ، يقال طردت الكلاب الصيد طردا نحته وراهقته .

(٢) البيت من قصيدة لزهير مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو ... وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

وفى الأصل : " والبر " وهو تحريف .

(٣) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد أشهر شواعر العرب فى الجاهلية والإسلام ، وهى ترثى بهذا الشعر أخاها صخرا . وقد حضرت حرب القادسية فى خلافة عمر وقتل فيها بنوها الأربعة بعد أن حضتهم على أن يكونوا أسخياء بنفوسهم شجعانا .

(٤) يقال أساه تأسية فتأسى ، أى عزاه فتعزى .

وفى الشكر قوله :

لأشكرنّك معروفاً هَمَمْتَ به إنّ اهتمامك بالمعروف معروفُ

وفى الافتخار قوله :

أخذنا بآفاق السماء عليكمُ لنا قمراها والنجومُ الطوالعُ

وفى الهجاء قوله :

فغُضَّ الطرف إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بَلَغْتَ ولا كلابا (١)

وفى الاستبطاء قوله :

كلانا غَنِيٌّ عن أخيه حياته ونحن إذا مُتنا أشدُّ تغانيا

[٣٢]

وفى الحكمة قوله :

ستُبْدِى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّد

وفى الزهد قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وفى الوعظ قوله :

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذو نسبٍ فى الهالكينَ عَرِيقُ

وفى اللهو والمبادرة قوله :

كم من مؤخِّرِ لذةٍ قد أمكنتْ لغدٍ وليس غدٌ له بمواتِ

(١) نمير وكعب وكلاب : أسماء قبائل ، والبيت لجرير من قصيدة يهجو بها الراعى الشاعر .

وفى الغزل قوله :

وما ذَرَفت عيناكِ إلا لتضربى ... بِسَهْمَيك فى أعشار[١] قلبٍ مقتَّلِ

وفى الطرد قوله :

فَعادى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ ... دِرَاكًا ولم يَنْضَح بماءٍ فيُغْسَلِ[٢]

وفى الخمر قوله :

لا يسكن الليلُ حيث حَلَّتْ ... فدهرُ شُرَّابها نهارُ

ويحتاج الشاعر إلى تعلم العروض ليكون معيارا له على قوله وميزانا على طنه ؛ والنحو ليصلح به من لسانه ويقيم به إعرابه ، والنسبِ وأيامِ العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب ، فيذكرهما[٣] فيمن قصده بمدح أو ذم ، وأن يروى الشعر ليعرف مسالك الشعراء ومذاهبهم وتَصرُّفهم ، فيحتذى مِنهاجَهم ، ويسلُك سبيلَهم . فاذا لم يجتمع له هذا فليس ينبغى أن يتعرض لقول الشعر . فإنه — ما أقام على الإمساك — معذور ؛ فمتى تعرَّض لما يظهر فيه عيبه وخطؤه كان مذموما . وقد قال الشاعر :

الشعرُ صَعبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ ... إذا ارتقى فيه الذى لا يَعلَمُهْ

زَلَّتْ به على الحضيضِ قَدَمُهْ ... يُريد أنْ يُعرِبه فيُعجِمُهْ

---

(١) أى كسور وأجزاء .

(٢) عادى والى . بين ثور ونعجة أى بين ثور وحشى وبقرة وحشية . دراكا أى تباعا . وقوله لم ينضح بماء فيغسل أى لم يعرق فيكون بمنزلة الذى غسل بالماء . والمراد أن الفرس أدرك الطريدة قبل أن يعرق . وهذا البيت والذى قبله من معلقة أمرئ القيس .

(٣) كذا فى الأصل ، وظاهر أن فى تثنية الضمير توسعا .

فإذا كملت هذه الأدوات ورأى من طبعه انقيادا (١) لقول الشعر ، وسماحة به قاله وتكلفه ، وإلا لم يكره عليه نفسه ؛ فالقليل مما تسمح به النفس ، ويأتي به الطبع ، خير من الكثير الذي يحمل فيه عليها . وإن أعين مع هذا بأن يكون في شرف من قومه ومحل من أهل دهره ، كان قليل ما يأتي به من الصواب كثيرا ، وكثيره جليلا خطيرا ؛ ولذلك قال الشاعر :

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد [٣٢م]

وقال علي بن الجهم (٢) في قريب من هذا المعنى :

وما أنا ممن سار بالشعر ذكره ولكن أشعاري يسير بها ذكري
ولا كل من قاد الجياد يسوسها ولا كل من أجرى يقال له مجري

والذي يسمى به الشعر فائقا ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقا ، صحة المقابلة وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ، واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة في المطابقة . وأضداد هذا كله معيبة تمجها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان .

وأما صحة المقابلة فمثل قول الشاعر :

أميل مع الذمام (٣) على ابن عمي وأحمل للصديق على الشقيق
وأفرق بين معروف ومن (٤) وأجمع بين مالي والحقوق

---

(١) في الأصل : " انقادا لقول الشعر " .

(٢) من مشهوري شعراء العصر العباسي الأول مات سنة ٢٤٩ هـ .

(٣) الذمام كل حرمة تلزمك اذا ضيعتها المذمة .

(٤) المن الفخر والاعتداد بالإحسان . وفي القرآن : " يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " .

فأحسن القسمة فى المقابلة ، ومال مع ما ينبغى أن يُمال معه ، وحمل على من يحسن الحمل عليه ، وفرق بين ما ينبغى أن يفرقه ، وجمع بين ما ينبغى أن يجمعه . وأساء الآخر المقابلة حين يقول :

أموت إذا ما صدّ عنى بوجهه ويفرح قلبي حين يرجع للوصل

بجعل ضدّ الموت فرح القلب ، وضدّ الصدّ بوجهه الوصل ، وهذه مقابلة قبيحة ولو قال :

أموت إذا ما صدّ عنى بوجهه وأحيا إذا ملّ الصدود وأقبلا

بجعل جزاء الموت الحياة ، وجزاء الصدّ بالوجه الإقبال — لكان مصيباً .

وأما حسن النظام فكقوله :

متاركةُ اللئيم بلا جوابٍ أشدّ على اللئيم من الجواب

وكقوله :

يأيها المتحلّى غير شيمته إن التخلّق يأتى دونه الخُلُقُ

[٣٢] فهذا نظم حسن جميل له رونق غير مُخيل (١) فأما قول الشاعر :

أُمَّ سلام أتبى عاشقاً يعلم الله يقيناً ربّهُ

أكم فى عينه من عيشةٍ فاعلميه يا سُلَيْمَى حسبه

---

(١) أى صادق لا لبس فيه ولا إشكال ، يقال هذا الشىء لا يخيل على أحد أى لا يشكل .

فقبيح النظم ، بادى العَوار ، ظاهر الاضطراب ، مختلف غير مؤتلف .

وأما جزالة اللفظ فكقوله :

وعلى عدوك يا ابنَ عمِّ محمدٍ رَصَدانِ ضوءُ الصبح والإظلامُ

فإذا تنبَّه رُعْتَه وإذا غفَا سَلَّتْ عليه سيوفك الأحلامُ

وأما سخافة اللفظ وركاكته ، فمثل قول الشاعر :

ياعُتْبَ سيِّدتى أما لك دِينُ حتى متى قلبى لديك رهينُ

فأنا الصبور لكل ما حَمَّلتِنى وأنا الشقىُّ البائسُ المسكينُ

وأما اعتدال الوزن فكقوله :

إنما الذلفاء همّى فَلْيَدَعْنى من يلومُ

أحسن الناس جميعا حين تمشى أو تقوم

أَصِلُ الحبل لترضى وهى للحبل صروم

فهذا شعر ليس فيه معنى فائق ، ولا مثل سابق ، ولا تشبيه مستحسن ، ولا غزل مستطرف ؛ إلا أن اعتدال وزنه قد كساه جمالا ، وصير له فى القلوب حالا . فإذا جئت إلى قول امرئ القيس :

وتعرِفُ فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله ومن يزيد ومن حُجُرْ

سماحةَ ذا وبرَّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكِرْ

وجدته قد أتى من الوصف ما لم يأت به أحد . ومدح أربعة فى بيت، وجمع لواحد فضائل الأربعة فى بيت آخر، وجعل ما مدحه به سجية له فى صحوه وفى سكره، ففاق فى هذه الأحوال كل شاعر . إلا أن اضطراب وزنه وكثرة الزحاف فيه قد هجناه، وعن حد القبول قد أخرجاه . [٢٣م]

وأما الإصابة فى التشبيه فكقول الشاعر :

فإنك كالليل الذى هو مُدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسعُ

وكقول الشاعر :

كأن مُثارَ النقع فوق رءوسنا ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبه

ومما سلك شاعره سبيل التشبيه فأساء ولم يُحسن ، قوله :

خطاطيف حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدّ بها أيدٍ إليـــك نوازع (١)

وقول الآخر :

ألا إنما ليلى عصا خيزُرانةٍ ... إذا لمسوها بالأكفّ تلين

وأما سهولة القول وقلة التكلف فكقول الآخر :

خيرُ المذاهب فى الحاجات أنجحها ... وأضيقُ الأمر أدناه من الفرج

(١) البيت من قصيدة نابغة يعتذر بها إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة . والخطاطيف واحدها الخطاف وهو الحديدة المعوجة يختطف بها الشىء . وحجن جمع حجناء أى معوجة ونوازع أى مجتذبة . يقول ضاقت الدنيا علىّ فكأنى من ضيقها فى بئر، فإذا أردتنى وأمرت بسوقى إليك فأنا أمد إليك بالخطاطيف لا أحد غيرك .

فهـذا لفظ سهل قريب قد جرى فيـه صاحبه على سجيته وعادته ؛ فإذا جئت إلى قول الآخر:

وما مثله فى الناس إلا مُمَلَّكا   أبو أمِّـه حىٌّ أبوه يقاربه

وجدته قد تكلف تكلفا غير خفىّ على سامعه ؛ فالقلوب له آبية ، والآذان عنه نابية . وأما جودة التفصيل فكقوله :

بيضٌ مفارقُنا ، تغلى مراجلنا   نأسـو بأموالنـا آثارَ أيدينـا

وكقول الآخر :

بيضاءُ فى دَعَجٍ ، صفراءُ فى نَعَجٍ   كأنها فضةٌ قد مسَّها ذهب [1]

فأما المطابقة والمشاكلة فيها فكقول الشاعر :

نُعَرِّض للطعان إذا التقينـا   وجوهاً لا تُعَرَّض للسِّباب

وقول الآخر :

سَمَّوه أحمدَ فالإسـلام يحمده [2]   والدهرُ كاسم أبيه ممرِعٌ خَصِبُ [3]

[٣٤] ومما ينبغى للشاعر أن يلزمه فيما يقوله من الشعر ألا يخرج فى وصف أحد ممن يرغب إليـه ، أو يرهب منه ، أو يهجوه ، أو يمدحه ، أو يغازله ،

(١) الدعج فى العين شدة سوادها فى شدة بياضها . والنعج حسن اللون .

(٢) فى الأصل : "يحمده" .

(٣) ممرع : مخصب .

أو يهازله، عن المعنى الذى يليق به ويشاكله ، فلا يمدح الكاتب بالشجاعة ، ولا الفقيه بالكتابة ، ولا الأمير بغير حسن السياسة ، ولا يخاطب النساء بغير مخاطبتهن . ولكن يمدح كل أحد بصناعته ، وبما فيه من فضيلة ، ويهجوه برذيلته ومذموم خليقته ، ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن والشكوى إليهن ، فإن فى مفارقته هذه السبيل التى قد نهجناها وسلوكه غير هذه الطريق ، وضعا للأشياء فى غير مواضعها ، وإذا وُضعت الأشياء فى غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى مواقعها . ولذلك قال الأمين لأبى نواس : إذا قلت فى الخصيب [1] :

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا فأىَّ فتًى بعد الخصيبِ تزور

فماذا أبقيت لى ؟ قال : قولى يا أمير المؤمنين :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نُثنى وفوق الذى نُثنى

وإن جرتِ الألفاظُ يوماً بمدحة لغيرك إنساناً فأنت الذى نعنى

وقد لعمرى أحسن الأمينُ التبكيتَ [2] لأبى نواس ووضعه موضعه ، وأحسن أبو نواس الاعتذار وتلافِىَ ما فَرط منه . ومما وضع فى غير موضعه فعيب وإن كان فى معناه جيداً قوله [3] :

فقلت لها ياعزّ كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنتْ يوماً لها النفسُ ذلّتِ

---

(١) هو الخصيب بن عبد الحميد ، وهو ممن ولّاهم الرشيد خراج مصر .

(٢) فى الأصل : التكيب .

(٣) فى الأصل : " قوله يوما " بزيادة كلمة " يوما " .

فقالوا: لو قال هذا فى الزهد كان من أشعر الناس. وكذلك قول الآخر:

يمشين رهواً[١] فلا الأعجازُ خاذلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تتّكلُ

فقالوا: لو وُصف بهذا النساء لكان من أشعر الوصف وأغزل الشعر.

ومما ينبغى له أيضاً أن يجتهد فيه أن يكون معنى كل بيت ولفظُه متساويين حتى يتم المعنى بتمام اللفظ، كما قال الشاعر:

ولا يُواتيك فيما نابَ من خلقٍ إلا أخو ثقةٍ فانظر بمن تثق

فهذا بيت قد تم معناه بتمام لفظه من غير حشو ولا تضمين. وكذلك قوله:

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ

أجدُ الملَامةَ فى هواكِ لذيذةً حُباً لذكرِكِ فليَلُمنى اللوَّمُ

فأما إذا تم المعنى قبل تمام البيت، فالشاعر حينئذ محتاج إلى حشو البيت بما لا فائدة فيه من اللفظ، وذلك [مثل[٢]] قول الشاعر: [٣٤م]

وقد أروح إلى الحانوتِ يتبعنى شاوٍ مِشَلٌّ شلولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ[٣]

---

(١) الرهو: السير السهل.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) كل هذه الألفاظ بمعنى واحد والمراد منها الرجل الخفيف فى الحاجة، الحسن الصحبة، الطيب النفس.

وإن تم البيت قبل أن يتم معناه ، احتاج إلى أن يُضمَّن البيت الثانى تمام المعنى ، كقول الشاعر :

وجناح [محصوص[1]] تحيَّفَ ريشَه ريبُ الزمان تحيُّفَ المِقراض

فهذا لا يقوم بنفسه ولا يبين عن معنى ما أريد به حتى يأتى بمعناه فى البيت الثانى ، وهو :

فنعشتَه ووصلتَ ريشَ جناحه وجَــبَرْتَه يا جابرَ المُنْهاض

وجميعهما معيبان ، فينبغى أن تجتنبهما ما وجدت السبيل إلى ذلك . واعلم أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذى يريد أو المعنيين فى بيت واحد ، كان فى ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك فى بيتين . وكذلك إذا أتى شاعران بذلك ، فالذى يجمع المعنيين فى بيت أشعر من الذى يجمعهما فى بيتين . ولذلك فُضِّل قولُ امرئ القيس :

كأن قلوبَ الطير رَطْباً ويابساً لدى وكْرِها العُنَّابُ والحشفُ البالى

على قوله :

كأن عيونَ الوحشِ حولَ خبائنا وأرحلِنا الجَزْعُ[2] الذى لم يُثَقَّب

---

(1) محصوص : متساقط الشعر ، ومكان هذه الكلمة فى الأصل بياض ، غير أن بالهامش تكميلا لهذا النقص لا يظهر منه إلا "صوص" وأليق كلمة تناسب المقام وتنتهى بهذين الحرفين هى "محصوص" .

(2) قيل هو الخرز اليمانى وهو الذى فيه بياض وسواد وتشبه به الأعين .

لأنه جمع فى البيت الأول وصف شيئين لشيئين ، وإنما وصف فى هذا شيئا بشىء. وللشاعر أن يقتصد فى الوصف أو التشبيه أو المدح أو الذم، وله أن يبالغ، وله أن يسرف حتى يناسب قولُه المحالَ ويضاهيه، ولا يستحسن السَّرف والكذب والإحالة فى شىء من فنون القول إلا فى الشعر. وقد ذكر أرسطاطاليس الشعر فوصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق، وذكر أن ذلك جائز فى الصناعة الشعرية . فمما اقتصد الشاعر فيه قوله :

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوقيعةَ أننى أغشَى الوغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمَ

ومما بالغ فيه قوله :

يَطعنهُمْ ما ارتمَوْا حتى إذا اطَّعَنُوا ضارَبَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا[1]

فجعل له عليهم فى كل حال من أحوال البسالة والشجاعة فضلا ومبالغة. ومما أسرف فيه الشاعر حتى أخرجه إلى الكذب والمحال، وهو مع ذلك مستحسن، قوله :

تَغطيت من دهرى[2] بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تُسألُ الأيامُ عَنى ما درتْ وأينَ مكانى ، ما عرفْنَ مكانى

ومما يزيد فى حسن الشعر ويمكّن له حلاوةً فى الصدر ، حسنُ الإنشاء وحلاوةُ النغمة، وأن يكون قد عَمَد إلى معانى شعره فجعلها فيما يشاكلها من

---

(١) يصفه بأنه يزيد عليهم فى كل حال من أحوال الحرب . والبيت من قصيدة لزهير يمدح بها هرم بن سنان .

(٢) كذا فى ديوان أبى نواس . وفى الأصل : "تغطيت من يحى" .

اللفظ، فلا يكسو المعانى الجدية ألفاظًا هزلية فيُسخفها، ولا يكسو المعانى الهزلية ألفاظًا جدية فيستوخمها صاحبها، ولكن يعطى كل شىء من ذلك حقه ويضعه موضعه. ويمثل فى ذلك بما وصف به الشاعر بعض الحُذَّاق بترتيب الكلام فقال :

أخو الجد، إن جاددت أرضاك جِدُّه　　　وذو باطلٍ، إن شئت ألهاك باطلُه

[٢٥م] وألا يجعل شعره كله جِدًّا فيُستثقل، إذ كانت النفوس ربما ملَّت الحق واستثقلته، واحتاجت إلى أن تمتري[١] نشاطها وتُبقى جِمامَها[٢] بشىء، وألا يجعل شعره كله هزلًا فيكسد عند ذوى العقول، ولكن يخلط جدًّا بهزل، ويستعمل كلًّا فى موضعه وعند أهله، ومن ينفُق عنده. وممن عرف هذا المعنى فى الشعر وأخذ فيه، وأربى[٣] فيما أتى منه على من تقدمه أبو نُواس فإنه يقول[٤] :

أنت امرؤٌ أوليتنى نِعَمًا　　　أوهتْ قُوى شكرى فقد ضعُفا

لا تُحْدِثنّ إلىّ عارفةً　　　حتى أقوم بشكر ما سلفا

---

(١) تمترى : تستخرج .

(٢) أى راحتها .

(٣) فى الأصل : "أر" .

(٤) فى الأصل "فانه أن يقول" . وبإزاء هذا الكلام كلمة بهامش الأصل غير واضحة .

ويقول أيضًا :

تنازعَ الأحمدانِ الشَّبْهَ بينهما خَلْقًا وخُلْقًا كما قُدَّ الشِّراكانِ[1]

شِبْهانِ لا فَرْقَ فى المعقولِ بينهما معناهما واحدٌ والعِدَّةُ اثنانِ

حتى يقول أيضا :

عُتِّقَتْ فى الدنِّ حتى هى فى رِقَّةِ دِينى

ويقول :

فيامن صيغ من حسن وطيب وجلّ عن المشاكل والضريب[2]

أصبنى منك يا أملى بذنب تتيه على الذنوب به ذنوبى[3]

فاجتباه العلماء لما جدّ فيه . وقال أبو عمرو[4] أو غيره : لولا ما أخذ فيه أبو نُوَاس من الإرفاث[5] لاحتججنا بشعره . واجتباه الخلعاء وأهل الهزل لمجونه ولما هزل فيه . فأما وضع المعانى فى مواضعها التى تليق بها، فكقول امرئ القيس فى عنفوان أمره وجدّة ملكه :

فلو أنّ ما أسعَى لأدنَى معيشةٍ كفانى، ولم أطلبْ، قليلٌ من المالِ

ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثَّل وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالِى

(١) الشراك ككتاب : سير النعل .

(٢) الضريب : النظير .

(٣) استبدلنا هذين البيتين من شعر أبى نواس بيتيه الواردين فى الأصل لأنه أفحش فيهما .

(٤) هو أبو عمرو إسحق بن مرار الشيبانى ، كان من الأئمة الأعلام فى اللغة ورواية الشعر والنحو . توفى سنة ٢٠٦ هـ .

(٥) الفحش .

فوضع طلب الرفعة وسموّ المنزلة موضعهما إذ كان ملكا، لأن ذلك يليق بالملوك، ثم وضع القناعة موضعها لمّا زال عنه ملكه وصار كواحد من رعيته، لأن ذلك أولى بمن هذه منزلته، فقال: [٣٦]

أَلَا إِلّا [١] تكن إبلٌ فمِعْزَى ... كأَنّ قرونَ جِلّتها العِصيُّ

إذا ما قام حالبها أرَنّتْ ... كأَنّ الحيَّ صبّحهمْ [٢] نَعِيُّ

فتملأ بيتنا أقِطًا وسَمْنًا ... وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ

وينبغى لمن كان قوله للشعر تكسّبًا لا تأدّبًا أن يحمل إلى كل سوق ما يَنفُق [٣] فيها ويُخاطب كل مقصود بالشعر على مقدار فهمه. فإنه ربما قيل الشعر الجيّد فيمن لا يفهمه فلا يَحسن موقعُه منه، وربما قيل الشعر الدّاعر لهذه الطبقة فكثرت فائدة قائله لفهمهم إياه. ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث ترويه عنه الشيعةُ: "إنّا أُمِرْنا، معشر الأنبياء، بأن نكلم الناس على مقادير عقولهم". وقال الشاعر:

وأنزلنى طولُ النوى دار غربةٍ ... إذا شئت لاقيت الذى لا أشاكله [٤]

فحامقته حتى يقال سجيّةٌ ... ولو كان ذا عقل لكنتُ أُعاقله

فهذا ما حضرنا فى أقسام الشعر المنظوم. وهو مقنع إن شاء الله.

---

(١) كذا فى شرح ديوانه لأبى بكر عاصم بن أيوب. وفى الأصل: "إذا لم".

(٢) كذا فى ديوانه. وفى الأصل: "بينهم".

(٣) يروج.

(٤) لا أشبهه وأوافقه.

باب فيه المنثور وما جاء فيه

وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة ، أو ترسلا ، أواحتجاجاً ، أو حديثاً ، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يُستعمل فيه .

فالخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين ، و إطفاء نائرة الحرب[١] ، وحَمالة الدماء[٢] ، والتسديد للملك ، والتأكيد للعهد فى عقد الأملاك ، وفى الدعاء إلى الله عز وجل ، وفى الإشادة بالمناقب[٣] ، ولكل ما أريد ذكره ونشرُه وشهرته فى الناس .

والترسل فى أنواع من هذا ، وفى الاحتجاج على المخالفين من أهل الأطراف ، وذكر الفتوح ، وفى المعاتبات والاعتذارات ، وغير ذلك مما يجرى فى الرسائل والمكاتبات . والبلاغة فى الجميع واحدة ، والعىّ قريب من قريب ، إلا أن الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ، ومأخوذة من لفظ مؤلفها ، وكان الناس جميعاً يرمُقونه و يتصفحون[٤] وجهه ، كان الخطأ فيها غير مأمون ، والحَصَر[٥] عند القيام بها مخوفاً محذوراً ، فأما الرسائل فالإنسان فى فسحة من تحكيكها[٦] وتكرير النظر فيها ، و إصلاح خَلَل إن وقع فى شىء منها . ثم هى نافذة على يد الرسول أو طىّ الكتاب ، [٣٦م]

(١) أى شرها وهيجها .

(٢) أى دياتها .

(٣) المفاخر واحدتها منقبة .

(٤) يتصفحون : ينظرون .

(٥) الحصر بالتحريك العى فى المنطق .

(٦) أى تنقيحها .

فقد كُفِيَ صاحبُها المقامَ الذى ذكرناه ، والحَصَرَ الذى وصفناه . فلهذا صار الخطيب إذا ساوى المترسِّلَ فى البلاغة كان له الفضل عليه ، كما كان الفضل للشاعر إذا ساوى المتكلم فى تجويد المعانى وبلاغة اللسان . وقد قال عبد الله بن الأهتم (١) : " إنى لست أعجب من رجل تكلم بين قوم فأخطأ فى كلامه أو قَصَّر عن حجته ، لأن ذا الحجا قد تناله العجلة ويدركه الحصر ويعزُب عنه القول ؛ ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاساً وخلا بفكره وعقله ، كيف يعزُب عنه باب من أبواب الكلام يريده ، أو وجه من وجوه المطالب يؤُمّه "

وقد ذكرنا المعانى التى يصير بها الشعر حسناً وبالجودة موصوفاً ، والمعانى التى يصير بها قبيحاً مرذولا ، وقلنا إن الشعر كلام مؤلف ، فما حسن فيه فهو فى الكلام حسن ، وما قبح فيه فهو فى الكلام قبيح . فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر ، فاستعمله فى الخطابة والترسُّل ، وكل ما قلناه من معايبه فتجنبه ههنا .

ثم إنه يَخُصُّ الخطابةَ والترسلَ أشياءُ نحن نذكرها ، ونبتدئُ باشتقاق الخطابة والترسل من اللغة فنقول : إن الخطابة مأخوذة من خَطَبْتُ أخطُبُ خطابةً ، كما يقال : كتبتُ أكتب كتابةً . واشتق ذلك من " الخطب " وهو الأمر الجليل ، لأنه إنما يقام بالخطب فى الأمور التى تَجِلُّ وتعظم ، والاسم منها خاطبٌ مثل راحم ؛ وإذا جعل وصفاً لازماً قيل خطيب ، كما قيل فى راحم رحيم . وجُعل رحيم أبلغ فى الوصف وأبين [٢٧]

---

(١) هو من رجالات العراق فى أواخر القرن الأول الهجرى . استعان به يزيد ابن المهلب فى حمل الخليفة سليمان بن عبد الملك على توليته خراسان عام ٩٧ هـ

فى الرحمة ؛ وكذلك لا يسمّى خطيباً إلا من غَلَب ذلك عليه وعلى وصفه وصار صناعةً له . والخطبة الواحدة من المصدر كالقَوْمة من القيام ، والضَّربة من الضرب ، وإذا جمعتها قلت خُطَب مثل جُمْعة وجُمَع . والخِطبة اسم المخطوب به وجمعها خِطَب مثل كِسْرة وكِسَر . فأما المخاطبة فيقال منها : خاطبت أخاطب مُخاطبةً ، والاسم الخطاب ، مثل قاتلتُه أقاتله مقاتلةً ؛ والاسم القتال .

والتَّرَسُّل : من تَرَسَّلتُ أتَرَسَّلُ تَرَسُّلاً وأنا مُتَرَسِّل ، كما يقال توَقَّفتُ أتوَقَّف تَوَقُّفاً وأنا مُتَوَقِّف ، ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله فى الرسائل قد تكرر ، كما لا يقال تكَسَّرَ إلا لمن تردّد عليه الفعل فى الكسر . ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أرسل يُرْسل إرسالا وهو مُرْسِل ، والاسم الرسالة . أو راسل يُراسل مراسلةً فهو مُراسل ، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا فى المراسلة . وأصل الاشتقاق فى ذلك أنه كلام يُراسل به مَنْ بَعُدَ أو غاب ، فاشتق له اسم التَّرسُّل ، والرسالة من ذلك . والخُطبة والخطاب اشتُقّا من الخطب والمخاطبة ، لأنهما مسموعان .

فمن أوصاف الخطابة : أن تُفتتح الخُطبةُ بالتحميد والتمجيد ، وتُوَشَّح [1] بالقرآن وبالسائر من الأمثال . فإن ذلك مما يَزِين الخطبَ عند مستمعيها وتَعظم به الفائدةُ فيها . ولذلك كانوا يُسَمُّون كلَّ خطبة لا يُذكر الله فى أولها البتراء [2] وكل خطبةٍ لا تُوَشَّح بالقرآن والأمثال الشوهاء [3] ولا يُتَمَثَّل فى الخُطب الطوال التى يُقام بها فى المحافل بشىء من الشعر . فإن أَحَبَّ أن يَستعمل ذلك فى الخطب القِصار والمواعظ والرسائل فليفعل ، إلا أن

(١) أى تحلى . (٢) و (٣) انظر الجزء الثانى من كتاب البيان والتبيين للجاحظ ص ٢–٣

[٣٧م] تكون الرسالة إلى خليفة فإن محله يرتفع عن التمثيل بالشعر فى كتاب إليه ، ولا بأس بذلك فى غيرها من الرسائل . وأن يكون الخطيبُ أو المترسِّل عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطَبين له ، فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطالة فيَقَصِّر عن بلوغ الإرادة . وألا يستعمل [1] الإطالة فى موضع الإيجاز فيتجاوز مقدارَ الحاجة إلى الإضجار والملالة ، وألا يستعمل ألفاظ الخاصة فى مخاطبة العامة ، ولا كلام الملوك مع السُّوقة ، بل يُعطى كل قوم من القوم بمقدارهم ، ويزنهم بوزنهم ، فقد قيل : " لكلِّ مَقام مقالٌ " . وإذا رأى من القوم إقبالا عليه ، وإنصاتاً لقوله ، فأحبوا أن يزيدهم ، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم ، وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وتثاقُلا عن استماع قوله خَفّف عنهم . فقد قيل : "مَنْ لم يَنْشَطْ لكلامك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك" . وليس يكون الخطيب موصوفا بالبلاغة ولا منعوتا بالبلاغة والخطابة إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها ، وأن يكون على الإيجاز إذا شرع فيه قادرا ، وبالإطالة إذا احتاج إليها ماهرا . وقد وصف بعضهم البلاغة بما قلناه فقال وقد سئل عنها : "هى الاكتفاء فى مقامات الإيجاز بالإشارة ، والاقتدار فى مواطن الإطالة على الغزارة" . وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يَرْمون بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارةً وَحْىَ المَلاَحِظِ خيفةَ الرُّقَباءِ

---

[1] يلاحظ أن " الا يستعمل " معطوف على " فلا يستعمل " كما هو واضح من سياق الكلام ؛ لا على " وأن يكون الخطيب . . . " حتى يصح ذكر " أن " المصدرية .

وقال جعفر بن يحيى (١) : " إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار هذراً " ، فبيّن ما يُحمد من الإيجاز ، وما يُحتاج إليه من الإكثار. فأما المواضع التي ينبغي أن يُستعمل كلُّ واحد منها فيه فإن الايجاز ينبغي أن يُستعمل في مخاطبة الخاصّة وذوى الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره ، وبمُجمَله عن تفسيره ، [٣٨] وفي المواعظ والسنن والوصايا التي يُراد حفظُها ونقلها ، ولذلك لا ترى في الحديث عن الرسول عليه السلام والأئمة شيئاً يطول ، وإنما يأتى على غاية الاقتصار والاختصار ، وفي الجوامع التي تُعرَض على الرؤساء فيقفون على معانيها ولا يُشغلون بالإكثار فيها . وأما الإطالة : ففي مخاطبة العوام ومن ليس من ذوى الأفهام ومن لا يكتفى من القول بيسيره ، ولا ينفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره ، ولهذا استعمل الله عزّ وجلّ في مواضع من كتابه تكرير القصص ، وتصريف القول ، ليُفهِم مَنْ بعُدَ فهمُه ويُعلِم مَنْ قصُر علمُه . واستعمل في موضع آخر الإيجاز والاختصار، لذوى العقول والأبصار. فمما رُوى من الخُطب القصيرة والرسائل الموجزة والألفاظ المختصرة ، ما نحن ذاكروه أو بعضه ليدلَّ على سائره ، فمن ذلك خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهى أن قال بعد حمد الله والثناء عليه : " أيها الناس ، كأن الموت في الدنيا على غيرنا كُتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن الذين [نُشيّع من] (٢) الأموات [سَفْرٌ] (٣) عما قليل إلينا راجعون . نُبوّئهم أجداثَهم ، ونأكل

---

(١) هو جعفر بن يحيى البرمكى ، كان معروفا بالفصاحة والبلاغة ، وكان أول الأمر أثيرا لدى الرشيد مكينا عنده ، فلما نكب الرشيد البرامكة قتله أشنع قتلة عام ١٨٧ هـ .

(٢) التكملة عن صبح الأعشى ، وموضع التكملة الأولى في الأصل بياض .

(٣) السفر بفتح وسكون المسافرون .

تُراثهم ، كأننا مُخلدون بعدهم . قد نسينا كلّ واعظة ، وأمِنّا كل جائحة .
طوبَى لمن شَغَله عيبُه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير
مَعْصية ، ورحم أهل الذل ، وخالَط أهل الفقه والحكمة . طوبَى لمن أذلّ
نفسه ، وحَسُنَتْ خليقتُه ، وصحّت سريرته ، وعَزَل عن الناس شرّه ، وأنفق
الفضلَ من ماله ، وأمسك الفضلَ من قوله ، ووَسِعَته السُّنَّة ، ولم يَعْدُها
إلى البدعة "[1] .

خطبة أخرى له عليه السلام :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أيها الناس ، إن لكم معالِمَ فانتهُوا
إلى معالمكم ، وإن لكم نهايةً فقِفُوا عند نهايتكم . إنّ المؤمنَ بين غايتين :
بين أجل قد مَضَى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى
ما الله قاض فيه ، فليأخذ امرؤٌ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، [٢٨]
ومن الشبيبة قبل الكِبَر ، ومن الحياة قبل الموت . والذى نفس محمد بيده
ما بعد الموتِ من مُسْتَعْتَب[2] ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة
أو النار " .

خطبة قس بن ساعدة[3] التى رواها عليه السلام

ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه رآه بعكاظ على جمل أحمر وهو يقول :
" أيها الناس اجتمعوا ، ثم اسمعو وعُوا . من عاش مات ، ومن مات

---

(١) البدعة فى الدين ما استحدث فيه من الأهواء والأعمال .

(٢) مصدر ميمى من استعتبه أعطاه العتبى وهى الرضا .

(٣) هو من قبيلة إياد ، كان خطيب العرب وحكيمها فى الجاهلية . ويظن أنه توفى
عام ٦٠٠ م .

فات ، وكل ما هو آتٍ آت . يا معشر إياد ! أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين المعروفُ الذى لم يُشْكَر ؟ وأين الظلمُ الذى لم يُنْكَرْ؟ أقسم قُسٌّ قسما حَقًّا ، إن لله لَدِينًا هو أرضى عنده من دينكم ".

ثم أنشد شعراً ، فهل مَنْ يحفظه ؟ فقال بعضهم أنا أحفظه . فقال : هاته ! فأنشد :

فى الذاهبين الأوّلــــين من القرون لنا بصائرْ
لمّا رأيتُ مَوَارِدًا للموتِ ليس لها مَصَادِرْ
ورأيتُ قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنتُ أنى لا محا لة حيث صارالقومُ صائر

ومن كلام أمير المؤمنين رضى الله عنه فى الحكمة وألفاظه القصار المنتخبة : "المرء مخبوء تحت لسانه . قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحْسِن . اِعرِف الحَقَّ تَعْرِف أهلَه . العلم ضالّةُ المؤمن . أغنى الغِنَى العقل ، وأفقرُ الفقر الحمق . الدنيا دار مَمَرّ إلى دار مَقَرّ ، والناس فيها رجلان : رجل ابتاع نفسه فأعتقها ، ورجل باع نفسه فأوبقها [١] . إذا قَدَرتَ على عدوّك فاجعل الصفح عنه شكراً للقدرة عليه . الصبر مَطِيَّةٌ لا تكبو ، وسيف لا ينبو [٢] .

(١) أهلكها .

(٢) نبا السيف عن الضريبة : كل ولم يقطع .

[٣٩] عُمرت البلدان بحب الأوطان . كفرانِ النعمة لؤم ؛ وصحبة الأحمق شؤم . اتِّباع الهوى يَصُدّ عن الهدى . الحجر الغَصْبُ فى الدار رهنٌ بخرابها ، ما ظَفِر مَنْ ظفر الإثمُ به . الغالب بالشرّ مغلوب " .

ومن كلام غيره :

" من الظَّفَر تعجيل اليأس من الممتنع . من لم يعرف شر ما يُولى لم يعرف خير ما يُبلى . الكريم للكريم محل . الموت فى قوة وعِزٍّ خيرٌ من الحياة فى ذلٍّ وعجز . لا زوالَ للنعمة مع الشكر ، ولا بقاء لها مع الكفر . شفيعُ المذنب إقراره ، وتوبتُه اعتذاره . عُجْبُ المرء بنفسه أحدُ حُسَّادِ عقله . إمنع الناسَ عن عِرْضك ، بما لا يُنكرونه من فعلك . مَنْ أمل أحداً هابه ، ومن قَصَّر عن شىء عابه . جهل المرء بقدره ، إهلاكٌ منه لنفسه . الصبرُ حيلةُ مَنْ لا حيلةَ له . حَسْبُك من شرّ سماعه . أُستر عورة أخيك ، لما يعرفه فيك . مَنْ خَفَّ على عدوه ، ثَقُل على صديقه . من أسرعَ إلى الناس بما يكرهون ، رمَوْه بما يعلمون وما لا يعلمون " . وهذا كثير يطول به الكتاب ، وإنما ذكرنا بعضه ليَدلّ على سائره إن شاء الله .

ومن الرسائل القصيرة الآتية على المعانى الكثيرة ، رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى مُسَيلِمَة (١) ، لما كتب إليه :

" من مُسَيلِمَة رسول الله إلى محمد رسول الله . أمَّا بعد ، فإن الله عز وجل قسم الأرض بيننا ولكنّ قُرَيْشٌ قومٌ غُدُرٌ " . فكتب إليه : " من محمد رسول الله ،

(١) هو متنبئ بنى حنيفة ؛ قتل يوم اليمامة فى الوقعة التى كانت بينه وبين خالد بن الوليد عام ١١ هـ .

إلى مسيلمة الكذاب. "أما بعد، فإن الأرضَ لله يُورثها مَنْ يشاء من عباده، والعاقبةُ للمتقين".

ورسالة يزيد بن الوليد (١) إلى مروان بن محمد (٢)، وقد بلغه عنه بعضُ التَّحبُّس (٣) عن بيعته، فكتب إليه: "من عبد الله أمير المؤمنين يزيد ابن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد، فاني أراكَ تُقدم رِجْلًا وتؤخر أخرى. فاذا أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيتهما شئت والسلام".

[٣٩م] فصلٌ للحسن بن وهب (٤): "فاسألُ الله أن يبلّغني أملي فيك، فإنها دعوة على قصرها طويلة".

ولسليمان بن وهب (٥): "وإن الدول إذا أقبلت كثَّرت العدّة وإن أقلت العدد، وإذا أدبرت كثَّرت العدد وأقلت العدّة".

---

(١) هو يزيد بن الوليد الخليفة الأموى المعروف بالناقص. كان من خيرة بنى أمية، غير أن عهده لم يطل، فقد توفى فى نفس العام الذى تولى الخلافة فيه، وهو عام ١٢٦ هـ.

(٢) هو آخر خلفاء بنى أمية، وكان قبل الخلافة أميرا على الجزيرة وأرمينية.

(٣) أى التمنع والتردد.

(٤) هو الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب، كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم بالله. وكان شاعرا بليغا. وقد مدحه أبو تمام بقصائد كثيرة، وله معه مساجلات شعرية مدونة فى كتب الأدب.

(٥) هو أبو أيوب سليمان بن وهب، أخو الحسن بن وهب الذى سبق التعريف به، كان فى أول أمره من كتاب الديوان، ثم وزر للمهتدى بالله والمعتمد على الله العباسيين. وكان عظيم الفضل، غزير الأدب، بارعا فى صناعة الخط، وقد رثاه البحترى بمرثية جيدة. توفى عام ٢٧٢ هـ.

ولأحمد بن سليمان [١] : "والنعم ثلاث : مُقيمةٌ ، ومتوقَّعةٌ ، وغيرُ محتَسَبة . فحرس الله لك مُقيمها ، وبلّغك متوقَّعها ، وآتاك مالم تحتسب منها" وله أيضًا : "واعلم أنّ الحقّ لمن أصابه ، لا لمن أخطأه وقد أراده" .

ولمحمد بن عبد الملك [٢] : "ولو لم يكن من فضل الشكر إلا أنه لا يُرى إلا بين نعمةٍ مقصورةٍ عليه أو زيادةٍ منتظرةٍ به . . ." .

ولأبي الربيع [٣] إلى يحيي بن خالد [٤] في اختيار العمال : "وليس لك أن تقول لربك : لم تجد ، وأنت لم تجتهد" . ولابن مُكْرَم [٥] : "وأسألك عفو إمكانك في حاجتي ، وأضمنُ لك جُهدي في شُكرك" . وفصل في تعزية : "وخيرُ حواشي نِعَمك ما نَقد ووَقاك ، أو بَقِيَ فسلاك" وفصل آخر : "والناس متقاربون حتى يحدُثُ لأحدهم غِنًى مُوسعٌ ، أو فقرٌ مُدْقِعٌ ،

---

(١) هو في أغلب الظن أحمد بن سليمان بن وهب الذي سبق التعريف به . روى الطبري في تاريخه أنه لما أمر أبو أحمد الموفق في عام ٢٦٥ هـ بقبض أموال بني وهب استثنى من ذلك أحمد بن سليمان المذكور .

(٢) هو محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق من بعده . وكان جبارا قاسيا قتله المتوكل على الله العباسي في تنور ابتكره محمد بن عبد الملك ليعذب فيه من يريد عذابه .

(٣) هو في أغلب الرأي محمد بن يعقوب المعروف بأبي الربيع . ولاه المتوكل المظالم عام ٢٣٧ كما روى الطبري .

(٤) كذا بالأصل . ولم نعثر على هذا الاسم فيما بين أيدينا من المراجع ولعله محرف عن « يحيى بن خاقان » الخراساني مولى الأزد . روى الطبري أن المتوكل ولاه ديوان الخراج عام ٢٣٤ هـ . وبذلك يستقيم قول المؤلف « ولأبي الربيع الخ » .

(٥) لعله ابن مكرم القاضي الذي روى الطبري أنه ولي فداء الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٣ هـ .

أو سُكْرُ سلطان ، أو نبوةُ زمان ، أو خوفٌ يتّصل به خَوَر ، أو أَمْنٌ يدعو إلى بَطَر [١] ".

آخر ، فى فصل من كتاب : "ومن نكد الزمان أنى ما عاشرتُ أحدًا إلا أزلتنى عِشْرتُه بين صَبْرٍ على أذى أو فراق على قِلًى". آخر : "والاعتذارُ منك تَفَضُّل ، ومِنّا تَنَصُّل" .

ومن مُوجَز التوقيعات [٢] : وقَّع أبو صالح بن يزداد [٣] إلى رجل أذنب : " قد تجاوزت عنك ، فإن عُدتَ أعدتُ إليك ما صرفتُه عنك " . وإلى آخر خافه : " ليس عليك بأس ، مالم يكن منك بأس " . وإلى آخر أدَلّ بكفاية : " أدللتَ فأملَلْتَ ، فاستصغِر ما فعلت تَنَلْ ما أمّلت " . وَوَقَّع المأمون إلى عامل له شُكِيَ : " قد كثُرَ شاكوك ، فإمّا عدلتَ ، وإلا اعتزلت " . وَوَقَّع فى أمر الجند : " لا يُعْطَوْا على الشَّغَب ، ولا يُحْوَجُوا إلى الطلب" . وَوَقَّع طاهر بن الحسين [٤] : " والله لئن هَمَمْتُ لأفعلن ، ولئن فعلت لأبرِمن ، ولئن أبرمت لأحكمن " . ووقع يحيى بن [٤٠]

(١) فى الأصل إلى « نظر » .

(٢) التوقيعات عندهم هى تعليقات الوزراء والرؤساء على ما يرفع اليهم من الرسائل والقصص ؛ وكانوا يتوخون فيها الإيجاز فى اللفظ والبلاغة فى المعنى .

(٣) هو أبو صالح محمد بن يزداد ، كان وزير الخليفة العباسى المستعين بالله الذى قتل عام ٢٥٢ هـ .

(٤) هو قائد جيوش المأمون فى الحرب التى جرت بينه وبين أخيه الأمين ، وكان أديبا محبا للشعر ، ولاه المأمون خراسان سنة ٢٠٥ ، فكان بذلك مؤسس الدولة الطاهرية بها ، توفى عام ٢٠٧ هـ .

خالد[١] فى نكبته إلى رجل سأله عن حاله : "أحسنُ الناسِ حالا فى النعمة مَن ارتبط مُقيمها بالشكر، واسترجع ماضيها بالصبر". ووقّع محمد بن خالد[٢] إلى عامل له : "أَجْرِ أُمورَك على ما يَكسِبُك[٣] الثناء، ويَكسِبُنا الدعاءَ. واعلم أنها أيام تنقضى، وأعمارٌ تنتهى؛ فإما ذكر جميل، أو خِزْىٌ طويل".

وإن رُمنا أن نأتى بكل ما سمعنا فى هذا الباب من مختصر الدعاء والوصايا، وقصير التوقيعات والخطب، طال علينا وشَغَلَنا عما إليه أجرينا. وإنما ذكرنا مثالا يحتذى عليه اللبيب، ويستنّ[٤] به الأديب؛ فأما الخطب الطوال، والرسائل الكبار، فهى مدوّنة موجودة فى كتب الناس.

وممن برع فى المعنيين من الإيجاز والإطالة، فسلم فى الإيجاز من التقصير وفى الإطالة من الإسهاب والتكثير، وتقدّم الناس جميعا فى ذلك كتقدّمه فى سائر فضائله، أمير المؤمنين عليه السلام. وله من الخطب الطوال المشهورة: الزهراء، والغرّاء، والبيضاء، وغيرهنّ مما قد حُمل عنه ونُقل إلينا من قوله. وإنما تحسُن الإطالة وبسطُ الكلام كما قلنا فى تفسير الجمل، وتكرير الوعظ، وإفهام العامة. ويليق ذلك بالأئمة والرؤساء ومن يُقتدى به،

---

(١) هو يحيى بن خالد البرمكى، مؤدب الرشيد قبل الخلافة ووزيره المصرف لشؤون الدولة بعد أن استخلف. نكبه الرشيد مع سائر البرامكة ومات فى محبسه عام ١٩٠ هـ.

(٢) هو فى أغلب الرأى محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى. يروى الطبرى أن المستعين قلده الثغور الجزرية عام ٢٥١، وكان له بلاء فى الفتن التى وقعت بالعراق عامئذ.

(٣) يقال كسبه خيرا وأكسبه إياه، والأول أفصح.

(٤) أى يقتدى به.

ويؤخذ عنه. فأما العامة والجمهور فلا يليق ذلك بهم، ولا ينبغى أن يتركوا يستعملونه؛ فإنها لقاح التباين، وسبيل الاختلاف، وسبب التشتت. وقد روى أن عمّاراً (١) رحمه الله تكلم يوماً فأوجز، فقيل له: "لو زدتنا"! فقال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باختصار الخُطَب" ولهذا المعنى قال شاعر الخوارج:

كُنّا أناساً على دينٍ ففرّقنا ... قَذْعُ(٢) الكلامِ وخلطُ الجدِّ باللَّعِبِ

ما كان أغنَى رجالا ضَلّ سعيُهمُ ... عن الجدال وأغناهم عن الخُطَبِ

ومن استعمل فى قوله وكتبه الإيجاز والاختصار من القدماء، ليهوّن بذلك حِفْظَ كتبه على من يُريد حفظها، ويُقرّب على ناقل كتبه وأقواله نقلَها، أرسطاطاليس وإقليدس(٣)، فإنهما لم يأتيا فى شيء من كلامهما بما يتهيأ لأحد أن يختصره، أو يأتى بمعناهما بأقلّ من لفظهما. وممن استعمل الشرح والإطالة منهم ليُفْهِم المتعلّم، ويفصّلَ المعانىَ للمتفهّم، [٤٠م]

---

(١) هو عمار بن ياسر أحد أجلاء الصحابة، ومن أصحاب على عليه السلام، قتل فى وقعة صفين عام ٣٧ هـ.

(٢) قذعه شتمه ورماه بالفحش وسوء القول.

(٣) عالم رياضى يونانى، اشتهر بالاسكندرية على عهد بطليموس الأول (٣٠٦ — ٢٨٣ ق. م). وهو صاحب كتاب «أصول الهندسة» الذى نقل إلى العربية مرة للرشيد، وأخرى للمأمون، ونقله ثالثة نصير الدين الطوسى فى القرن السابع الهجرى.

جَالِينُوس (١) و (٢) يوحنا النحوى (٣) . وكُلٌّ قد قَصَد مقصِداً لم يُرِد به إلا النفع والخير.

ومن الأوصاف التى إذا كانت فى الخطيب سُمّى سديداً ، وكان من العيب معها بعيداً ، أن يكون فى جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته ، غير مستكرِهٍ لطبيعته ولا متكلّف ما ليس فى وسعه ، فإنّ التكلّف إذا ظهر فى الكلام هجّنه وقبّح موقعه . وحسبُك من ذمّ التكلّف أن الله عزّ وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتبرؤ منه ، فقال : " قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ " (٤) وألا يظن أن البلاغة إنما هى الإغراب فى اللفظ والتعمّق فى المعنى، فإن أصلَ الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى ، والبليغ ما بَلَغ المراد ؛ ومن ذلك اشتقا . فأفصح الكلام ما أفصح عن معانيه ولم يُحوِج السامعَ إلى تفسيرٍ له ، بعد ألّا يكون كلاماً ساقطاً أو لألفاظ العامّة مشبهاً . ولذلك قال بعضهم

---

(١) طبيب يونانى يعتبر أشهر أطباء القدماء بعد أبقراط ، برع فى فن التشريح ووظائف الأعضاء . وكان إلى جانب ذلك فيلسوفا يؤمن بإله واحد وبالقضاء والقدر ، وقد ترجمت كتبه إلى العربية زمن ازدهار المدنية الإسلامية . ولد بمدينة برغاموم بآسيا الصغرى عام ١٣٠ م . وتوفى بصقلية عام ٢٠٠ م .

(٢) فى الأصل « أو » بدل واو العطف .

(٣) ويقال له أيضا يوحنا فيلوبونوس ، فيلسوف يونانى اسكندرى . عاش فى أواخر القرن الخامس الميلادى وأوائل السادس ، وعرف بالنحوى لتوفره على دراسة النحو والأدب وتنسب إليه طائفة كبيرة من الكتب الموضوعة فى اللاهوت والفلسفة . وبعض مؤرخى العرب يزعم أنه هو الذى طلب من عمرو بن العاص أن يهبه ما فى مكتبة الاسكندرية من الكتب فلم يفعل عمرو وأحرقها بإذن الخليفة عمر . وقد ثبت أن هذا كله وهم وخطأ .

(٤) سورة ص .

فى وصف البلاغة : "هى أن يتساوى فيها اللفظ والمعنى ، فلا يكون اللفظ أسبق إلى القلب من المعنى ، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ" وليس يُنْكر مع ذلك أن يكلّم أهلُ البادية بما فى سجيتها علمهُ ، ولا ذوو الأدب بما فى مقدار أدبهم فهمه ؛ وإنما يُنكر أن تكلّم الحاضرة والمولدون من الغريب بما لا يعرفون وبما هم إلى تفسيره محتاجون ، وأن تُكلّمَ العامةُ السخفاء بما تُكلّمُ به الخاصّة الأدباء . وإنما مَثَلُ من كلّم [٤١] إنساناً بما لا يفهمه وبما يحتاج إلى تفسير له كمَثَلِ مَنْ كلّم عربياً بالفارسية ؛ لأن الكلام إنما وُضع ليعرف به السامع مرادَ القائل ، فإذا كلمه بما لا يعرفه فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم غيرها . فما جرى فى هذا الباب مجراه المعهود ، وسُلِك به فى سبيلهُ المقصود ، وأُتى به طريقُه المحمود ، قول طَخْفَة ابن زُهير النَّهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلام له طويل أغرب فيه : "ولنا نعمٌ هَمَلٌ أغفال ، ما تبضُّ بِبِلَال ؛ ووَقيرٌ قليلُ لرِسْل كثيرُ الرَّسَل ، أصابتها سنةٌ حمراءُ مُؤْزِلةٌ ليس لها عَلَل ولا نَهل "(١)

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "اللهم بارِكْ له فى مَحْضِها ومَخْضِها ومَذْقِها ؛ واحبس راعِيها فى الدَّثْرِ ، بيانع الثمر ؛ وافجُرْ له الثَّمَد ؛ وبارِك له

---

(١) طخفة بن زهير النهدى – وأورده ابن الأثير "طهفة" بالهاء . وفد على الرسول عام ٩ هـ . أغفال أى غير مرعية لإعواز النبات . ما تبض ببلال أى ما يقطر منها لبن . الوقير : الغنم ، الرسل بكسر الراء وسكون السين : اللبن ، والرسل بفتح أوله وثانيه من الإبل والغنم : ما بين عشرة إلى خمسة وعشرين . وسنة حمراء أى شديدة . مؤزلة من آزلت السنة أتت بالأزل وهو الضيق والشدة ، العلل : الشرب بعد الشرب ، والنهل محركة : أول الشرب .

فى المـال والولد"[١] فى كلام له طويل. وكقول الآخر له فى بعض سؤاله إياه : أيُدِ آلِكَ[٢] الرجل امرأته يارسول الله ؟" قال : "نعم ، إذا كان مُفْرَحاً[٣] " فهذا كلام من السائل والمسئول والقائل والمجيب ، حسن مأثور، لأنه مفهوم بين من يخاطب به . وإنما يُستنكر من ذلك الموضوعُ غيرَ موضعه والمخاطب به غيرَ أهله ؛ كقول أبى علقمة[٤] النحوىّ وقد عثر فسقط فاجتمعت عليه العامة فقال : "مابالُكم تتكأْكئون[٥] علىّ كأنما تتكأْكئون على ذى جِنّة[٦] إفرنقعوا[٧] عنى" ! وكقول آخر من أهل زماننا : "كنت فى عقابيل[٨] من علّتى فتلفعتُ بالعَفَنْشَلِيل "[٩] فهذا وشبهه منكر قبيح لا ينبغى أن يستعمله ذو عقل

(١) المحض : اللبن الخالص . النخض : الفخم . وفى رواية ابن الأثير "مخضا" بالميم والخاء، والمخض : تحريك السقاء الذى فيه اللبن ليخرج زبده . والمذق : المزج والخلط . الدثر : المال الكثير ، والمراد به هنا الخصب وكثرة النبات . أنجر : نجّر الماء، ونجّره أساله . الثمد الماء القليل .

(٢) يداك يماطل .

(٣) المفرح بصيغة اسم المفعول الذى أثقله الدين .

(٤) هو أبو علقمة النحوى التميرى ، أصله من واسط ، واشتهر فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى وقد ترجم له ياقوت فى الجزء الخامس من كتابه معجم الأدباء، وأورد أخبارا عجيبة عن تقعره فى اللغة وولعه بحوشى الكلام .

(٥) تجمعون .

(٦) الجنة الجنون .

(٧) تفرقوا .

(٨) واحدها عقبول وهو بقية المرض .

(٩) العفشليل الكساء الغليظ .

صحيح . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم والتشادُق "(١) وقال : "أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون" (٢) . وقال "من بدا جفا" .

[٤١م] ومن أوصاف البلاغة أيضاً السجع فى موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه، فان السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر، وإن كانت القافية غيرَ مستغنًى عنها والسجع مستغنًى عنه. فأما أن يلزمه الإنسان فى جميع قوله ورسائله وخُطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعِىّ من قائله ؛ وقد رُويتْ الكراهية فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فروى أنّ رجلا سأله فقال : يارسول الله ! أرأيت مَنْ لا شَرِب ولا أكل ، ولاصاح فاستهلّ (٣)، أليس مثل ذلك يُطَلّ؟ "(٤) قال فقال : "أسَجْعٌ كسجع (٥) الجاهلية!؟" وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك،لأنه أتى بكلامه مسجوعاً كله، وتكلف فيه السَّجع تكلف الكهّان. وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ، ولا مُتَمَحّلَة (٦) مُسْتَكرَهة ، وكان ذلك على سجيّة الإنسان وطبعه ، فهو غيرُ منكر ولا مكروه ، بل قد أتى فى الحديث : "ويقول العبد مالى مالى، وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى". ومما

(١) أن يلوى الرجل شدقه للتفصح .

(٢) هم المتوسعون فى الكلام من غير احتياط واحتراز .

(٣) استهل الصبي : رفع صوته عند ولادته .

(٤) يطل : أى لاتدفع ديته . ويعرف هذا الحديث بحديث الجنين.

(٥) كذا فى البيان والتبيين . وفى الأصل : "كسجع فى الجاهلية" بزيادة كلمة "فى"

(٦) أى محتالا لها .

تكلّم به بعض أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محموداً ، ومن الاستكراه بعيداً ، قوله : "والحمد لله الذى ذخر المِنّة لك ، وأخّرها حتى كانت منك ، فلم يَسبقك أحدٌ إلى الإحسان إلىّ ، ولم يحاصّك أحدٌ فى الإنعام علىّ ، ولم تتقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المِنَنُ وجهى فهو لك مصونٌ جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعاً حتى رعيتَه ، وحقى مبخوساً حتى قضيتَه ، ورفعتَ من ناظرى بعد انخفاضه ، وبسطتَ من أملى بعد انقباضه ، فليس أعتدّ يداً إلا لك ، ولا مِنّة إلا منك ، ولا أُوجّه رغبتى إلا إليك ، ولا أتكل فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صانتنى عن شكر من سواك". ومما يُباين هذا مما وُضع [٤٠٢] غير موضعه قولُ صديق لنا فى فصل من رُقعة له : "ورزقنى عدلك ، وصرف عنى خذلك" . وقوله أيضاً : "ولقد جلّت عندى بابن فلان المصيبة ، وعظُمت الشِّصيبة"[1] . وقول آخر فى صدر رُقعة : "أطال الله بقاءك لى خصيصاً ، ولأوِدّائك فِصوصاً"[2] . ولقد شهدتُ مرة ابن التُّستَرى[3] ، وكان يتقعر فى منطقه ، ويطلب السجع فى كتبه ، ويستعمل الغريب فى ألفاظه ، وقد لقى امرأة عجوزاً فقال لها : "خلى عن سنن الطريق يا قحمة !" فظنت أنه قال لها : "يا قحبة !" فتعلقت به وصاحت : "يا معشر المسلمين! نصرانىّ يقول لمسلمة يا قحبة!" فأخذته

---

(١) الشصيبة : الشدة والجدب .

(٢) لم نعثر على معنى قوله "فِصوص" ولعله لفظ موضوع للاعزاز والتدليل .

(٣) فى الأصل "البسترى" بالباء ، وهو تصحيف قال فيه صاحب الفهرست "وهو سعيد بن ابراهيم التسترى ... وكان نصرانيا قريب العهد ومن صنائع بنى الفرات هو وأبوه . ويلزم السجع فى مكاتباته" . وكونه من صنائع بنى الفرات يفيد أنه عاش فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع

الأيدى والنعال حتى كاد أن يَتْلَف . ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالها فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة المهديُّون(١) قد استعملوهما ولزموا سبيلَهما وسلكوا طريقهما ؛ فأما ولسنا واجدين فيما فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلّا فى المواضع اليسيرة ، فهم أولى بأن يُقتَدَى بهم ويحتَذَى بمناهجهم ممن قد نبت فى هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادّعاؤها ، ولا من الخطابة إلا التحلِّى باسمها .

ومما يزيد فى حسن الخطابة وجلالة موقعها جهارة الصوت ، فإنه من أجلّ (٢) أوصاف الخطباء ، ولذلك قال الشاعر :

جَهيرُ الكلام جهيرُ العُطاس شديدُ النِّياط جهيرُ النَّغَمْ(٣)

وقال آخر :

إن صاح يوماً حسبتَ الصخرَ منحدراً والريحَ عاصفةً والموجَ يلتطمُ

---

(١) يريد المؤلف أئمة الشيعة الاثنى عشرية لأنه كما يؤخذ من قرائن كثيرة فى هذا الكتاب كان على مذهب هذه الفرقة .

(٢) فى الأصل : "أحد" .

(٣) نياط القلب عرق غليظ نيط بالقلب إلى الوتين .

وذم آخر بعض الخطباء برقة الصوت وضآلته ، فقال :

ومن عجب الأيام أن قمتَ خاطباً وأنت ضئيلُ الصوت منتفخُ السَّحْر(١)

وليس يلتفت فى الخطابة إلى حلاوة النَّغْمة ، إذا كان الصوت جهيراً ، لأن حلاوة النغمة إنما تُراد فى التلحين والإنشاد دون غيرهما . وليس ينبغى [٤٢م] للخطيب أن يَحْصَرَ عند رَمْى الناس بأبصارهم إليه ، ولا يعبأ بالكلام عند إقبالهم عليه . فقد رُوى أن عثمان رضى الله عنه لما بويع له صَعِدَ المنبرَ فَحُصر وأُرْتِجَ عليه(٢) ، فقال : "أيها الناس ! إنكم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام قائل . وإن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المَقام مقالاً وستأتيكم الخطبةُ على وجهها إن شاء الله". وأُرْتِجَ على آخر وقد رَقِىَ المنبرَ فنزل وأنشأ يقول :

فإلّا أكن فيكم خطيباً فإننى بسيفى إذا جَدَّ الوَغَى لخطيبُ

فكان يقال : لو قاله وهو على المنبر كان من أخطب الناس . وقد استعاذ الشاعر من الحَصَر والعِىّ فقال :

أعذْنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ومن نَفْس أعالجها علاجاً

---

(١) انتفخ سحره بفتح السين أى عدا طوره وجاوز قدره . ومن معانى السحر أيضا الرئة . يقول إن رئته ملأت تجويف صدره فضؤل صوته .

(٢) أرتج عليه ، بالبناء للمجهول ، استغلق عليه الكلام .

وينبغى له أن يتقى خيانة البديهة فى أوقات الارتجال ، ولا يغره انقياد القول له فى بعض الأحوال ، فيركب ذلك فى سائر الأوقات وعلى جميع الحالات ، فان وثق بانقياد القول له ومسامحته (١) إياه ، فأتى بالبديهة بما يأتى به غيره بعد الروية، فذلك الخطيب الذى لايعادله خطيب ، والأديب الذى لايوازيه أديب؛ وبذلك وصف الشاعر بعضهم فقال :

قهر الامور بديهة كروية ... من غيره وقريحة كتجارب

وأن يقل التنحنح ، والسعال ، والعبث باللحية ؛ فان ذلك عندهم من دلائل العى ، وفيه يقول الشاعر :

ومن الكبائر مقول متتعتع ... جم التنحنح متعب مبهور (٢)

ومما يدل أيضاً عندهم على الحصر وتصعب القول وشدته على القائم به، العرق . قال الشاعر :

لله در عامر إذا نطق ... فى حفل أملاك وفى تلك الحلق

ليس كقوم يعرفون بالسرق (٣) ... من كل نضاح (٤) الذفارى (٥) بالعرق

(١) أى مساهلته ومواتاته .

(٢) أى منقطع النفس من الأعياء .

(٣) سرقت مفاصله كفرح ضعفت .

(٤) نضحت القربة كمنع رشحت .

(٥) واحدتها ذفرى وهى العظم الشاخص من خلف الأذن .

ويُروى أن يزيد بن عمر بن هبيرة [1] تكلم بحضرة هشام [2] فأحسن ؛ فقال هشام : "ما مات من خلّف هذا" فقال الأبرش الكلبي [3] : "ليس هناك ! أما ترى جبينه يرشح لضيق صدره ؟" فقال له يزيد : "ما لذلك رشح ، ولكن لقعودك فى هذا الموضع" وكانوا يتعاطون سعة الأشداق وتبيين مخارج الحروف ، و يمتدحون بذلك و بطول اللسان ، ويعدونهما من آلات الخطابة ؛ قال الشاعر : [٤٣]

تَشادَقَ حتى مال بالقول شِدْقُه ... وكلُّ خطيب لا أباً لكَ أشدقُ

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسان : "ما بقى من لسانك ؟" فأخرجه حتى ضرب بطرفه أرنبته [4] ثم قال : "والله ما يسرّنى به مِقْوَلٌ [5] من معدّ ، والله لو وضعته على صخر لفلقه أو على شعرٍ لحلقه".

وينبغى للخطيب ألّا يستعمل فى الأمر الكبير الكلامَ الفطير [6] الذى لم يُخمّره [7] التدبّر والتفكير ، فيكون كما قال الشاعر :

وذى خَطَلٍ [8] فى القول يحسب أنه ... مصيب وما يَعرِض له فهو قائلُه

---

(١) ولى العراق للأمويين من عام ١٢٨ ﻫ وقتله العباسيون غدرا بواسط عام ١٣٢ ﻫ .

(٢) هو هشام بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى المشهور . ولى الخلافة من عام ١٠٥ الى عام ١٢٥ ﻫ .

(٣) حاجب الخليفة هشام وكان يثق برأيه و يستشيره .

(٤) الأرنبة طرف الأنف .

(٥) لسان .

(٦) الفطير كل ما أعجل عن الادراك والنضج .

(٧) لم ينضجه .

(٨) الكلام الفاسد الكثير .

بل يكون كما قال الآخر :

وَقُوفُ لدى الأمر الذى لم يبن له ويمضى إذا ماشك من كان ماضياً

وأن يكون لسانه سالماً من العيوب التي تشين الألفاظ ، فلا يكون ألثغ[١] ، ولا فأفاء[٢] ولا ذا رُتّة[٣] ولا تمتاماً[٤] ولا ذا حُبْسة[٥] ولا ذا لفف[٦] فإن ذلك أجمع مما يذهب ببهاء الكلام، ويهجن البلاغة ، وينقص حلاوة النطق . وقد ذكر أن واصل بن عطاء[٧] كان قبيح اللثغة على الراء ، وكان إلى المناقلات[٨] وارتجال الخطب لأهل نحلته ومستحسنى دعوته محتاجا ، فراض لسانه حتى أخرج الراء من منطقه ؛ وخطب خطبة طويلة تدخل فى عدة أوراق لم يلفظ فيها بالراء ، فكان مما يعد من فضائله وعجيب ما اجتمع فيه . ويروى أن زيد بن على[٩] رحمه

---

(١) الألثغ الذى لا يستطيع أن يتكلم بالراء .

(٢) الفأفاء الذى يكثر ترداد الفاء إذا تكلم .

(٣) أى ذا عجلة فى الكلام وقلة أناة . وقيل الرتة أن يقلب اللام ياء .

(٤) التمتام من يردد التاء فى كلامه .

(٥) الحبسة تعذر الكلام عند إرادته .

(٦) اللفف فى الكلام ثقل وعى مع ضعف ، ورجل ألف أى عى بطىء الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فمه .

(٧) هو مؤسس مذهب الاعتزال وأحد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علم الكلام وغيره . ولد عام ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٨١ هـ .

(٨) المحادثات ، يقال ناقلت فلانا الحديث إذا حدثته وحدثنى .

(٩) هو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . خرج على بنى أمية عام ١٢١ هـ وقتل بالكوفة سنة ١٢٢ هـ . وإليه تنسب الشيعة الزيدية المعتبرة أكثر فرق الشيعة اعتدالا .

الله خطب بعد خطبة خطبها الجمحى [١] فأحسنها وأجادها ، إلا أن الجمحى كان بأسنانه فلج [٢] شديد ، فكان يصفر فى كلامه ؛ فلما تساوى كلامهما فى الوزن وحسن النظم وإصابة المعنى ، وسلم زيد بن على رحمه الله من الصفير الذى كان فى كلام الجمحى ، فضل عليه ؛ فقال عبد الله بن معاوية بن جعفر [٣] يصف خطبة زيد .

[٤٠٣م] قلت قوادحها [٤] وتم عديدها فله بذاك مزية لا تنكر

فهذه جمل ما يحتاج إليه فى الخطابة إذا كانت مسموعة . فأما الرسائل فهى مستغنية عن جهارة الصوت وسلامة اللسان من العيوب ، لأنها بالخط ، فتحتاج إلى أن تشاهد ويساعد حسنها حسن الخط ، فإن ذلك يزيد فى بهائها ويقربها من قلب قارئها . والأصل فى الخط أن تكون حروفه بينة قائمة ، ومن الإشكال بعيده سالمة ، ثم إن كان مع صحته وبيانه حلواً حسناً كان ذلك أزيد فى وصفه . وألا يستعمل به التخفيف الذى يعميه إلا مع من جرت عادته بقرءة مثل ذلك واستعماله ، كنحو ما جرت عادة الكتاب فى تعليق الميم ، وإقامة الكاف وتصيير شكلة [٥] عليها تفرق بينها وبين اللام ، ومد

---

(١) لم نعثر على ترجمة للجمحى هذا ، ولعله الجمحى الذى يسند إليه ياقوت بعض أخبار أبى طفمة النحوى (معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٣) .

(٢) الفلج تباعد ما بين الثنايا والرباعيات ، يقال رجل أفلج وامرأة فلجاء .

(٣) هو عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب الذى خرج على الأمويين بالمشرق وقتل عام ١٢٧ هـ .

(٤) عيوبها .

(٥) فى الأصل : "وتصيير كل شكلة" بزيادة كلمة "كل" .

السين وتصيير شكلة عليها ، أو تنقيط ثلاث نقط من تحتها ؛ فان استعمال ذلك مع من جرت عادته باستعماله كاستعمال الغريب مع من يفهمه ، واستعمال إقامة الحروف على حقائقها وأصول أشكالها ، كاستعمال المعهود من الكلام المصطلح عليه مع سائر الناس . وألاّ يَمُدَّ الحروف التى لم تجر العادة بمدها ؛ فان أبا أيوب[1] رحمه الله كان يقول : " المَدّة فى الخط فى غير موضعها لحن فى الخط". وأن يتفقد قلمه بقَطّه[2] وتسويته ، فإن أبا أيوب رحمه الله كان يقول : " القلم الردىء كالولد العاق". ومما يزيد الخطّ حسناً ، ويُمكّن له فى القلوب موضعاً ، شدّةُ سواد المداد وجودةُ إلاقة[3] الدواة فإنه يَجرى من الخطّ مجرى القطن من الثوب ؛ فمتى كان القطن ردىء الجوهر ، لم ينفع النسّاجَ حذقه ، ووضَعَ من الثوب سوءُ جوهره ، وإن أحكم الصناع صنعته .

باب فى اختيار الرسول

[٤٤] والذى يحتاج إليه المُرْسِل فى الرسول ، حتى يكون عند ذوى العقول لبيباً ، ومن الصواب قريباً ، أن يختاره حتى يكون أفضل مَنْ بحضرته فى عَقْله ، وأدبه ، وضَبْطه ، وعارضته[4] ، ودينه ، ومُرُوءته . فقد كان يقال . " ثلاثة تدلّ على أهلها : الهدية على المُهدِى ، والرسولُ على المرسل ؛

(١) سبق التعريف به فى ص ١١٣ .

(٢) القط بفتح أوله : القطع عرضا .

(٣) إصلاح ليقتها ومدادها .

(٤) العارضة قوة الكلام وتنقيحه . ورجل ذو عارضة أى ذو جلد وصراحة وقدرة على الكلام .

والكُتّابُ على الكاتب ". وكان يقال : "رسول المرء مكانُ رأيه ، وكتابه مكان عقله". ولذلك جعل الله عز وجل رسلَه أفضلَ خلقه، وأخبر أنه اصطفاهم على العالمين ، وقال : " اللهُ أعلمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ "(١). وإنما وجب أن يختار العاقلُ رسولَه لأنه قد أقامه فيما يؤديه عنه مُقامَه ، فعليه أن يجعله أفضلَ مَنْ بحضرته ، وعلى الرسول أن يؤدى ما حُمِّل ، كما قال الله عز وجل : " فإنَّما عَلَيهِ ما حُمِّلَ "(٢) وكما قال : "فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ"(٣)، وإنما وجب عليه البلاغ لأن الرسالةَ أمانة . فعليه أن يؤديها ، لأن الله عز وجل يقول : "إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِها "(٤) . وليس للرسول أن يزيد فى الرسالة ، ولا أن ينقص منها لأن ذلك خيانة للأمانة ، إلا أن يكون المرسل قد فوض إليه أن يتكلّم عنه بما رأى . وقد قال الشاعر :

فإنْ كنتَ فى حاجةٍ مُرْسِلًا فأرسِلْ حكيما ولا تُوصِه

وإنما أمر بذلك لأنَّ الحكيم إذا وصّيته لم يتجاوز وصيتَك وإن كان الرأى عنده خلافَها ؛ فربما ضرّك بترك الأصوب عنده واتّباع أمرك ، ولا لوم عليه فى ذلك ؛ وإذا فوّضت إليه عَمِل بحكمته ورأيه . وقد رُوى فى هذا المعنى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجّه عليًّا عليه السلام فى بعض أموره فقال له : " أكون يارسول الله فى الأمر إذا وجّهتنى

---

(١) سورة الأنعام .

(٢) سورة النور .

(٣) سورة النحل .

(٤) سورة النساء .

كالسكة (١) المُحماة إذا وُضعت لِلميسَم (٢) أو يرى الشاهدُ ما لا يرى الغائب ؟ "، ففوّض إليه لما رأى منه خيراً ووثق برأيه ؛ وقال لغيره من [٤٠ م] سائر الناس : " نضّر الله امرأً سَمِع مقالتى فوعاها وأدّاها " ولم يفوض إليهم لقلة ثقته بهم . فعلى العاقل أن يستشعر هذا المعنى فى رُسُله ، فإذا أرسل مَنْ يثق بأمانته وعقله ، فوّض إليه أن يقول عنه ما يراه أولى بالصواب عنده ؛ وإذا لم يكن بهذه المنزلة إلا أنه أفضل مَنْ يقدر عليه للوقت وَصّاه ألا يتجاوز قولَه ، وعليه أن يتخيّر من الرسل من لا تكون فيه العيوب التى نذكرها أو بعضُها ، وهى : الحدّة ، فإن صاحبها ربما فقد عقلَه ؛ وليس من الحزم أن يُقيم الإنسان مقامه من يفقد عقلَه ؛ والحسد ، فإنّ صاحبه عدوّ نعم الله عز وجل ولا يحب أن يرى لك ولا لغيرك حالا مستقيمة ، ومتى رأى شيئاً من ذلك حمله حسدُه على أن يُفسده ؛ والغفلة ، فإن صاحبها لا يضبط ما يحمله عنك ولا يعود به إليك ؛ والعجلة ، فإن صاحبها لا يضع الأشياء على مواضعها ويسبق بها أوقاتَ فُرصتها . وقد قيل : " رُبَّ عجَلة تَهَبُ رَيثاً (٣) وقال الشاعر :

قد يُدرك المتأنّى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجِل الزلَلُ

والنميمة ، فإنها تُفسد الإخاء ، وتُكدّر الصفاء ، ولا يتم معها أمر ، ولا تنجح لمستعملها طَلِبة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال " استعينوا على

---

(١) السكة المحماة الحديدة المتقدة .

(٢) أى وضعت للسك أو للنقش كما يفعل عند نقش الدراهم . ومعنى العبارة : أكون مجرد أداة لا تصرف عندها ؟

(٣) الريث الإبطاء .

نُجح حوائجكم بالكتمان" فمن خالف ذلك كان بعدم التوفيق جديراً ، وبالحرمان حقيقاً ، والكذب ، فإنه مجانبٌ للإيمان ، وليس لكذوب رأى . وإذا اعتمد الإنسان فى أمره على من يكذبه ، كان فى ذلك شينُه وَعَطَبُه ؛ والضجر ، فليس للضجور صبر على حفظ الأسرار فى رسالة ولا تأدية أمانة ؛ والعُجْب ، فإن صاحبه منه فى غرور ، وربما حمله على أن يخالف فيما يَضُرُّ بك فيه ؛ والهَذَر ، فان مَنْ كَثُرَ كلامُه كثر سَقَطُه ؛ ومن أسقط [1] لم يحفظ سر صاحبه وأبداه ، وإن لم يكن ذلك مغزاه [2] .

[٤٥] فإذا سلم الرسول من هذه العيوب ، وكان مع ذلك أديباً أو مقارباً لوصف الأديب ، بَلّغ للمرسِل بإذن الله مرادَه ، وأمِنَ ضرَّه وفسادَه . فهذه عُمْدة ما يُحتاج إليه فى اختيار الرسول . وإن اتّفق للمرسل مع ذلك أن يكون الرسولُ مقبولَ الصورة ، حسنَ الاسم ، كان ذلك زائدًا فى توفيق الله عز وجل ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل الوافد عن اسمه ، فإن كان حسناً تفاءل به وأعجبه ، وإذا كان مكروهاً غيّره .

وعلى الذى تُؤدى إليه الرسالةُ أن يسمعَها ، ولا يلوم الرسولَ إن أغلظ له فيها ، فليس على رسول لوم ، فإن أحبّ أن يقابله بمثل رسالته فعل . فقد أباحه الله ذلك بقوله : "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ" [3] . فإن أمسك وعفا ، فالعفو أقربُ للتقوى ، وأولى بالرأى عند ذوى الحجا .

---

(١) السقط محركة : الخطأ فى القول والحساب . وأسقط فى كلامه وسقط : أخطأ .

(٢) قصده .

(٣) سورة البقرة .

باب فيه الجدل والمجادلة

وأما الجدل والمجادلة فهما قول يُقصد به إقامةُ الحجة فيما اختلف فيه اعتقادُ المتجادلين . ويستعمل فى المذاهب والديانات ؛ وفى الحقوق والخصومات ، والتنصُّل[1] فى الاعتذارات ، ويدخل فى الشعر وفى النثر .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما محمود ، والآخر مذموم . فأما المحمود فهو الذى يُقصد به الحقُّ ويُستعمل به الصدقُ . وأما المذموم فما أُريد به المماراةُ والغلبةُ وطُلب به الرياء[2] والسُّمعة[3] . وقد جاء فى القرآن مدح ما ذكرنا أنه محمود ، وذَم ماذكرنا أنه مذموم ، وتواتَر فيه قول الحكماء وألفاظُ الشعراء ، فقال الله عز وجل : "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[4] . وقال "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا"[5] . وقال فى إبراهيم : "وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ"[6] . وقال : "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ"[7] وبذلك تَعبَّد[8] أنبياءه وصالحى عباده ، فقال عز وجل : "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

---

(١) التنصل التبرؤ من جناية أو من ذنب .

(٢) الرياء إظهار خلاف الواقع .

(٣) السمعة مانوه بذكره ليرى ، أى قصد الشهرة .

(٤) سورة العنكبوت .

(٥) سورة النحل .

(٦) سورة الأنعام .

(٧) سورة الأنعام .

(٨) يقال تعبد الله العبد بالطاعة أى استعبده .

ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ"[١] . وقد أجمعت العلماء وذوو العقول من القدماء على تعظيم مَنْ أفصح عن حُجّته و بيّن عن حَقّه ، واستنقاص [٤٥ م] مَنْ عجز عن إيضاح حقه وقصّر عن القيام بحُجّته . ووصف الله عز وجل قريشاً بالبلاغة فى الحجة واللَّدَد[٢] فى الخصومة ، فقال : "وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا "[٣] . وقال : "فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ"[٤] . وقال : "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ"[٥] . وقال : "وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ"[٦] . وذم من لايقيم حجته، ولا يبين عن حقه فى خصومته ، وشبههم بالولدان والنسوان فقال : "أَوَمَن يُنَشَّأُ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ"[٧] . وقال الشاعر :

وإن آمرأ يَعيا بتبيين حَقّه إذا آعتركتْ عند الخِصام القرائحُ
لآبائه إن كان فى بيت قومه وللحَسَب المأثورِ عنهم لفاضحُ

وأما ما جاء فى ذم التعنت والمِراء وطلب السُّمعة والرياء وقصد الباطل وركوب الهوى ، فقول الله عز وجل : "هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ

(١) سورة النحل .
(٢) اللدد : الخصومة الشديدة .
(٣) سورة مريم .
(٤) سورة الأحزاب . وسلقوكم آذوكم .
(٥) سورة البقرة .
(٦) سورة المنافقون .
(٧) سورة الزخرف .

فى ٱلحياةِ ٱلدُّنيا فمن يجادلُ اللهَ عنهم يومَ ٱلقيامةِ أم من يكونُ عليهم وكيلًا ”(١) . وقوله : ” وٱلذين يحاجُّون فى اللهِ من بعدِ ما ٱستُجيب له حجتُهم داحضةٌ عند ربهم وعليهم غضبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ ” (٢) .

ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم صديقًا كان له فى الجاهلية(٣) . فقال : ” كان لا يشارى ولا يمارى ” وقال : ” من تسمّع سمّع الله به ” . وقال بعضهم : ” المراء يفسد الإخاء ” وأنشد :

فدعِ المراءَ إذا نطقتَ فإنه يُغرِى بك الأعداءَ والحُسَّادا

وقال : ” دع المراءَ لقلّة خيره ” . وقال أمير المؤمنين رضى الله عنه لابن الكوّاء (٤) : ” سل تفقّهًا ولا تسأل تعنّتًا ” .

[٤٦] وحقُّ الجدل أن تبنى مقدماته مما يُوافق الخَصْمُ عليه ، وإن لم يكن فى نهاية الظهور للعقل ، وليس هذا سبيلَ البحث ؛ لأن حقّ الباحث أن يبنى مقدماته مما هو أظهر الأشياء فى نفسه وأبينها لعقله ، لأنه يطلب البرهان ، ويقصد لغاية التبين والبيان ، وألا يلتفت إلى إقرار مخالفيه

---

(١) سورة النساء .

(٢) سورة الشورى .

(٣) هو السائب بن أبى وداعة القرشى السهمى . المشاراة : التمادى فى الخصومة والمماراة الجدال .

(٤) هو عبد الله بن الكواء اليشكرى . كان ناسبا عالما . وكان أول أمره ممن ثار على عثمان من أهل الكوفة ثم صار من أصحاب على عليه السلام ؛ ثم خرج عليه وصار من زعماء الخوارج .

فيه . فأما المجادل ، فلما كان قصده أنه [1] إنما هو إلزام خصمه الحجة ، كان أوكد الأشياء فى ذلك أن يلزمه إياها من قوله ، وذلك مثل قول الله عز وجل لليهود لما أراد إلزامهم الحجة فيما حرموه على أنفسهم بغير أمر ربهم : " كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ " [2] فجادلهم بكتابهم الذى يقرون به وبفرض ما فيه ووجوبه عليهم ؛ وأعلمهم أنهم إذا حرموا على أنفسهم مالم يحرمه الله فى كتابهم الذى هذه سبيله فى وجوب التسليم له فقد ظلموا واعتدوا ، وهذا لازم لهم .

وقد قلنا إن الجدل إنما يقع فى العلة [3] من بين سائر الأشياء المسئول عنها ، وليس يجب على المسئول الجواب إلا بعد أن يأذن فى السؤال ، فان لم يأذن فله ذلك وليس ينسب إلى انقطاع [4] ولا محاجزة [5] . فإن أذن فقد لزمه الجواب ، وإن قصر عنه نسب إلى العجز [6] .

وطلبُ العلة يكون على وجهين : إما أن تطلبها وأنت لا تعلمها ، وإما أن تطلبها وأنت تعلمها ليُقرّ لك بها . وليس لك أن تجادل أحداً فى حق يدّعيه إلا بعد مسألته عن العلة فيما ادعاه فيه ؛ فان كان علمك

---

(١) يستقيم الكلام بالاستغناء عن قوله " أنه " ومن الطريف ملاحظة تفرقة المؤلف بين الباحث والمجادل ؛ وبيان غرض كل منهما وسبيله فى الوصول اليه .

(٢) سورة آل عمران .

(٣) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٤) و (٥) و (٦) سيأتى تفسير المؤلف لهذه الألفاظ فى ص ١٥٠ — ١٥١

بعلته قد تقدّم فى شهرة مذهبه ؛ فالأحوطُ أن تقرِّرهُ بما بَنى عليه أمرَه ، لئلا يجحدَ بعض ما ينتحله أهلُ مذهبه إذا وقف عليه الكلام ويدعى أنه مخالفُهم فيه ؛ فان أمنتَ ذلك منه فلا عليك أن تجادله وإن لم تقرِّره [٤٦م] بعلته . واثنان لا يلزمك منهما سؤال ؛ ولا يجب لهما عليك جواب : أحدهما من سألك عن العلة فى شىء ادعيتَه فأخبرته بها . وهى مما يجوز أن يعلل ذلك الشىء بمثله فطالبك بعلة للعلة ؛ فمطالبته فى ذلك غير لازمة ومسألته ساقطة ، لأن ذلك يوجب أن يطالب بعلة للعلة ، ثم كذلك إلى مالا نهاية له . والآخر من أراد مناقضتك فى مذهبك ولم ينصب لنفسه مذهبًا يجب له عليك فيه بمخالفتك إياه المخاصمة ، فليس تلزمك له حجة فى ذلك ولا يجب له عليك فيه سؤال . مثال ذلك أن رجلا لو سار إلى بعض الأئمة والحكام برجل قد قتل رجلا أو أخذ ماله ؛ وأقام البينة على ذلك ؛ ثم لم يكن ولىَّ الدم ، ولا صاحبَ المال ، ولا وكيلا لصاحب الدم من أوليائه ، ولا لصاحب المال — فلم يكن للأئمة ولا للحكام أن يقيموا حدًا عليه أو يطالبوه برد ما أخذ ؛ إذ كان الدافع له والمطالِب بذلك فيه غير مستحق للمطالبة بما يجب عليه من الحكم .

والعلل علتان : قريبة وبعيدة . فالقريبة ما كان المعلول وَاليهَا ، والبعيدة ما كان بينه وبينها غيره ؛ وذلك كالولد الذى علته القريبة النكاح ، وعلته البعيدة والداه . وللعلل وجوه : (منها) اعتبارها ، فإن اطّردت فى معلولاتها صحّت ، وإن قصرت عن شىء من ذلك علم أنها غير صحيحة . ومثال ذلك أن الحركة لما كانت علة المتحرك ، كان قولنا إذا سئلنا عن الجسم المتحرك : ما علة حركته ؟ فقلنا : حلول الحركة فيه — قولا صحيحا ، لأنه يطّرد فى معلولاته ويوجد فى كل جسم متحرك . فأما

سئلنا عن العلة فى حركة الجسم ، فقلنا : لأنه جسم ، كان ذلك باطلا ، لأنه قد تكون أجسام لا حركة فيها . (ومنها) أن تكون العلة فى صحة الشيء هى العلة فى بطلان ضده ، إذا كان ضدا لا واسطة له ، وقد مضى تمثيل ذلك [1] . (ومنها) أن العلة فى الشيء إذا كانت من اجتماع شيئين [٤٧] أو أكثر من ذلك لم تكن واجبة إذا انفرد بعض تلك الأشياء ، مثل رجل أراد قلب حجر ثقيل فلم يطقه ، فلما عاونه عليه غيره وتأيدت قواهما قلباه ، فليس العلة فى الاستقلال به أحدهما ، لأن كل واحد منهما عاجز عنه إذا انفرد به ، وإنما العلة اجتماعهما . ومن هذا المعنى يحتج للتواتر بأنه حجة وإن كان كل واحد من المخبرين يجوز عليه الكذب . (ومنها) أن العلة إذا كانت مأخوذة مما يوافق الخصم فيه ، فلا مطعن له فيها ، وذلك مثل قول موحِّد [2] سأله [3] مشبه عن العلة فى قوله : إن الله ليس بجسم ، فقال لإجماعنا على أنه ليس يشبهه شيء ، فلو كان جسما لكان مثل الأجسام فى معنى الجسمية . فإذا كانت العلة مأخوذة مما يخالفك فيه الخصم ، فليس

---

(١) انظر ص ٢٦ — ٢٧ من هذا الكتاب .

(٢) موحد من التوحيد وهو بمعناه العام الإيمان بالله وحده لا شريك له . ولكنه هنا التوحيد الذى تعنيه المعتزلة ويفسره الشهرستانى فى قوله :

"واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه : جهة ومكانا وصورة وجسما وتحيزا وانتقالا وزوالا وتغيرا وتأثرا . وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط توحيدا "

(٣) وقوله « مشبه » مأخوذ من التشبيه الذى قالت به جماعة من غلاة الشيعة وبعض الفرق الأخرى . قال الشهرستانى : "فإنهم صرحوا بالتشبيه فقالوا إن معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض ؛ إما روحانية وإما جسمانية ؛ ويجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن " .

يجوز أن تحتج عليه بها إلا بعد أن تُعلمه أن علتك مأخوذة مما يخالفك فيه، وأنه لا سبيل لك إلى تعريفه صحتها إلا بعد أن تصحح عنده المقدمات التي أوجبتها، وذلك كجواب موحد سأله مُلحد عن العلة فى إثبات الرسل، فليس يمكنه أن يُبين ذلك إلا بعد أن يدل على البارئ. فإذا صح فى نفس خَصْمه أنه موجود وأقر له بذلك ذكر العلة فى الرسل. فأما قبل ذلك فلا سبيل له إلى إيجاده العلة فى ذلك. (ومنها) أن الجدل فى العلة والسؤال عنها ماض فى سائر ما يُخالفك فيه خصمك. فإذا صرت إلى ما يوافقك فيه فليس لك أن تسأله عن العلة ولا أن تُجادله فيها، لأنك حينئذ تكون مجادلاً لنفسك. اللهم إلا أن يكون سؤالك عن العلة فى ذلك لتقرره بها ثم تأخذه بطردها فى شىء — وقد أباه — حكمه حكم ما وافقك فيه. وذلك كقولك لمن وافقك على إثبات البارئ عز وجل وهو مجسّم: ما دليلُك وعلتك اللذان أوجبت بهما وجود البارئ عز وجل؟ فيدلّ على ذلك بما يُشاهدُ من تأليف الأجسام ووجودها بعد أن لم تكن وتناهيها وتركيبها وآثار الصنعة فيها. [٤٧م] فتكون علته فى ذلك هى العلة فى أن صانعها لا يشبهها ولا يكون مثلها، وأنه متى كان جسما لزمه حكم الأجسام فى الحاجة إلى صانع غيره. (ومنها) أن المعارضة فى الجدل صحيحة، وإن كان قوم قد أبوها وقالوا إنها لا مسألة ولا جوابٌ، وليس الأمر كما ظنوا. والمعارضة ها هنا المقابلة، كما يقال عارضت السلعة إذا بعتها بمثلها. فاذا قابلت بين الأمرين والعلتين وطالبت خصمك بأن يحكم للشىء بما توجبه العلة فى نظيره، كان ذلك واجباً. وقد عارض الله عز وجل من أبى البحث وآستنكره مع إقراره بابتداء الخلق واختراعه. فقال: "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا

ٱلَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ"(١) ، فألزمهم الله ألا ينكروا إعادتهم بعد أن فقدوا مع إقرارهم بابتداء الله إياهم وما كانوا . وكل زيادة تقع فى المسألة أو العلة من جنس المسألة فليس ذلك بخروج عنها ، وأما ماخالف معنى المسألة والعلة فهو خروج وتخليط .

وقد ذكر المتكلمون (٢) "الخلاف والمناقضة" وكثيراً مايستعملون بعض ذلك فى موضع بعض . ونحن نبين كل واحد منها ، ونرسم فيه ما يُعرف به الفرق بينه وبين الآخر ، فيستعمل كل واحد منهما فى موضعه .

"فالمناقضة" فى اللغة المفاعلة ، من نقضت البناءَ والغزل وغيرهما . فإذا بنى الإنسان قوله على إثبات شىء لشىء بعينه (٣) ثم نفاه عنه ، أو بنى قوله على نفى شىء عن شىء بعينه ثم أثبته له ، فكأنه قد نقض ما بنى وآستحق اسم المناقضة . وإنما جعل ذلك على المفاعلة ، لأنّ المجادلة لا تقع إلا بين اثنين . وإنما تقع المناقضة (٤) فى الكلام إذا كان المخبَرُ عنه واحداً والخبر [٤٨] واحداً ولم تتشابه الأسماء ولا الأخبار فى لفظها مع اختلاف معانيها ، وكان الزمان فى القول واحداً ، والمكان واحداً ، والنسبة فى الاستطاعة واحدة ، ثم اختلفا فى تلك بالإيجاب والنفى ، فتلك المناقضة . فأما إذا لم يكن المخبَرُ عنه واحدا فى الاسم ، كقولنا : زيد قائم وعمرو غير قائم ، فليس ذلك مناقضة . وإذا لم يكن الخبر واحداً فى اللفظ كقولنا : زيد قائم وزيد غير

(١) سورة يس .

(٢) المتكلمون هم المشتغلون بعلم الكلام ، وهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها . وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته .

(٣) فى الأصل : "بعنيه" وهو تصحيف .

(٤) فى الأصل : "المناقلة" .

قائم ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اتفقت الأخبار واختلفت معانيها ، كقولنا : إسحاق مغنٍّ وإسحاق غير مغنٍّ ، ونحن نريد بإسحاق الأول الموصلى (١) والآخر الظاهرى (٢) ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اشتبهت الأخبار واختلفت معانيها كقولنا : زيد أسود من عمرو [وليس زيد أسود من عمرو] (٣) ونحن نريد بأحدهما السؤدد ، وبالآخر السواد الذى هو ضد البياض ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اختلف الزمان فى القول فقلنا : زيد قائم وزيد غير قائم ، وأردنا أن زيداً قائم الساعة وغير قائم فى غد ، فليس ذلك بالمناقضة . وإذا اختلف المكان فى ذلك فقلنا : زيد خارج وزيد غير خارج ، وأردنا أنه خارج من داره وغير خارج من المدينة ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اختلفت النسبة فى الاستطاعة والفعل (٤) فقلنا : زيد كاتب وزيد غير كاتب ، ونحن نريد أنه يحسن الكتابة ويستطيعها متى أرادها ، وهو غير كاتب بيده فى حالة الإخبار عنه ، لم تكن مناقضة . فهذا معنى المناقضة .

وأما "الخلاف" فهو ما خالف الشىء الشىء فيه فى بعض ما ذكرناه ولم تجتمع له شروط المناقضة التى وصفناها ، وأكثر ما وقع من الخلاف [٤٨م

(١) هو إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلى ، كان من ندماء الخلفاء وواحد عصره فى الظرف والغناء . وكان إلى ذلك ، من العلماء باللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام العرب . توفى عام ٢٣٦ هـ .

(٢) هو إسحق بن راهويه المتوفى عام ٢٣٨ هـ . جمع بين الحديث والفقه والورع ، وعنه أخذ داود الظاهرى إمام أهل الظاهر المتوفى عام ٢٧٠ هـ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) سياق الكلام يقتضى أن يعطف "الفعل" على "الاستطاعة" ، كما يدل عليه المثل المذكور بعد فى المتن .

فى الشرائع خاصة من جهة النسخ ، أو التشابه فى الأسماء والأخبار ، أو من جهة الخصوص والعموم ، أو من جهة الإجمال والتفسير ، أو من جهة الرأى والتخيير : وقد ذكرنا ذلك بشرحه فى " كتاب التعبد " بما أغنى عن إعادته ، إلا أنا نذكر من ذلك جملا تدل عليه .

أما " الاختلاف من جهة النسخ " ، فهو أن يكون الشىء محرّماً ثم يحلل ، أو محللا ثم يحرم ، أو مفروضاً ثم يترك ، أو متروكا ثم يفرض . فيعلم الأول قوم ولا يعلمون النسخ فيعملون بما علموا ، ويعرف النسخ آخرون فيأخذون بما عرفوا ، فيقع الخلاف بينهم من هذا الوجه . وذلك مثل المسح على الخُفَّين ، فإن الشيعة تزعم أنه منسوخ ، والعامّة[1] ماضية على الأول ؛ وكالمتعة[2] التى تزعم العامة أنها منسوخة ، والشيعة ماضيةٌ فيها على الأمر الأول ، وإنما خالف النسخ المناقضة لاختلاف الأوقات ، وأن الوقت الذى حرّم فيه الحلال غير الوقت الذى حلّل فيه الحرام .

وأما " الاختلاف من جهة التشابه فى الأسماء والأخبار " فمثل تحريم المسكر ، فإن قوماً حملوه على أنه الشراب الذى هذا نعته ، فحرّموا قليل النبيذ وكثيره ، وقوم حملوه على أنه الجزء الذى يسكر دون غيره ، فأحلوا منه ما كان دون ذلك من السكر ، فوقع الاختلاف بينهم لاحتمال التأويل .

وأما " الخصوص والعموم " فهو أن يُعمّ بالنهى شىء ، ثم يُخصّ نوع منه بالتحليل ؛ أو يعمّ بالتحليل جنس ثم يخص نوع منه بالتحريم ؛ وذلك

---

(١) المراد بالعامة هنا غير الشيعة من المسلمين .

(٢) المراد بالمتعة الزواج المؤقت . وقد أجمع أهل العلم بالدين على أنها حرام .

كتحليل الله البيع جملة ، واختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم تحريم الدرهم بالدرهمين ، والدينار بالدينارين ، والرُّطَب بالتمر ، وأشباه ذلك . وقد ذهب هذا التخصيص على عبد الله بن عباس[1] ، فكان يجيز بيع الدرهمين بالدرهم إذا كان نقداً ، فوقع الخلاف بينه وبين غيره من هذا الوجه .

[٤٩] وأما " الإجمال والتفسير " فكقوله عز وجل : " وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا "[2] . ثم إنه فسر السبيل فقال : " خذوا عنِّي ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريبُ عام ، والثَّيِّبُ بالثيِّب جلدُ مائة والرجم " . وقد حمل الشُّراة[3] أمر السبيل على ظاهر القرآن ، وأبطلوا الرجم ؛ وكذلك فعلوا في الحُمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب ، لأنهم أخذوا في ذلك بالجملة من قوله : " قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥ... " إلى آخر الآية[4] وذهب عليهم التفسير ، فوقع الخلاف بينهم وبين الجماعة من هذا الوجه .

وأما " الرأي " فهو أن ترد الحادثة على بعض العلماء ، ولا يكون عنده فيها حكم لله ولا سنة لرسوله ، فيجتهد رأيه ، فيأخذ الناس ذلك عنه ، ثم يبلغه الحكم في ذلك فيدع رأيه ويرجع إلى ما بلغه من حكم الله ورسوله

---

(١) هو ابن عم الرسول (صلعم) . كان يلقب بحبر الأمة الإسلامية لسبق علمه بالحديث والفقه والشعر والمغازي . توفى بالطائف عام ٦٨ هـ ؛ وله من العمر سبعون سنة .

(٢) سورة النساء .

(٣) الشراة : الخوارج ، سموا أنفسهم بذلك أخذا من قوله تعالى " ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله " أي يبيعها ويبذلها في الجهاد .

(٤) سورة الأنعام .

ويتمسك أتباعه بما حملوه عنه ، لأنهم لايعلمون برجوعه ؛ ولذلك قال ابن مسعود [١] : "ويلٌ للناس من زَلَّة العالم" لأنه يجتهد رأيه ثم يؤخذ عنه ثم يَبِين له الصوابُ فى غير ما رأى فيرجع إليه ، ويذهب الأتباع بما سمعوا ، فيقع الخلاف من هذا الوجه .

وأما "التخيير" فكالإقامة مَثْنَى مَثْنَى أو فُرادى فرادى [٢] ، وكتخيير الله عز وجل فى كفّارة اليمين فى الطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة .

فهذه جمل ما فى الخلاف والمناقضة ، وهى تكفى وتغنى إن شاء الله .

باب فيه أدب الجدل

وهو أن يجعل المجادل قصده الحق ، وبِغْيته الصواب ، وألاّ تحمله قوة إن وجدها فى نفسه ، وصحة [٣] فى تمييزه ، وجودة خاطره ، وحسن بديهته ، وبيان عارضته ، وثبات حجته — على أن يسرع فى إثبات الشىء ونقضه ، ويشرع فى الاحتجاج له ولضده ؛ فإن ذلك مما يذهب ببهاء علمه ، ويُطفئ نور فهمه ، وينسبه به أهل الورع والديانة إلى الإلحاد وقلة الأمانة .

---

(١) هو عبد الله بن مسعود الصحابى الجليل . كان من أعلم الصحابة بالقرآن ؛ توفى بالمدينة عام ٣٢ هـ .

(٢) أى كالتخيير بين أن تقام الصلاة بالعبارات التى تقام بها مثنى مثنى كما هى الحال فى الأذان وبين أن تقام بها فرادى .

(٣) فى الأصل "وصحته" .

ولذلك اطّرح الناس الراوندى[1] ومن أشبهه على قوتهم فى الجدل وتمكنهم من النظر . وليعلم أن عواقب طلاقة اللسان وجنايات البيان على كثير من الناس كبيرة غير محمودة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أوتى امرؤ شرًا من طلاقة اللسان" . وأخذ أبو بكر رضى الله عنه بطرف لسانه وقال: "هذا الذى أوردنى الموارد" . وألّا تسحره الكثرة والقلة فيما يطلبه من الحق فيقلّد الأكثرين ، أو يريد التكبر عليهم ، أو التكثر بهم ، أو الترؤس عليهم بمتابعتهم ؛ فقد ذمّ الله الكثرة ومدح القلة فقال : " إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ"[2] وقال : "وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ"[3] . وألّا يقلّد الحكم الفاضل فى[4] كل ما يأتى به إذ كان غير مأمون منه الخطأ ؛ فقد يخطئ العاقل ويصيب الجاهل ؛ ولذلك قال أمير المؤمنين للحارث بن حوط[5] " يا حارث ؛ إنه ملبوس عليك ؛ إن الحق لا يعرف بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله" . وأن يخرج عن قلبه التعصب للآباء فإن الله يقول: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ

---

(1) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندى . كان من رجال القرن الثالث ، وله مؤلفات كثيرة ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام . وقد انفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه . توفى سنة ٢٥٠ هـ ببغداد بالغا من العمر أربعين سنة . والراوندى نسبة الى راوند بفتح الواو وهى قرية من قرى قاسان بنواحى اصبهان .

(2) سورة ص .

(3) سورة يوسف .

(4) زيادة ليست فى الأصل .

(5) هو الحارث بن حسان بن حوط الذهلى . كان من أصحاب على ؛ قتل يوم الجمل عام ٣٦ هـ .

آباءنا"(١). وأن يعتزل الهوى فيما يريد إصابة الحق فيه ؛ فإن الله يقول : "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله"(٢). وألا ينقاد لزخرفة القول وظاهر رياء الخصم ، فقد حذر الله من هذه الطبقة على أيدى أنبيائه فقال : "ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد"(٣). وقال : "وإذا رأيتهم [٥٠] تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم"(٤). وقال المسيح فى الإنجيل : "احذروا الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان(٥) وقلوب الذئاب" وألا يقبل من ذى قول مصيب كل ما يأتى به لموضع ذلك الصواب الواحد ، ولا يرد على ذى قول مخطئ فيه كل ما يأتى به لموضع ذلك الخطأ الواحد ؛ بل لا يقبل قولا إلا بحجة ولا يرده إلا لعلة ، ويكون فى ذلك كالوزان الحاذق المتفقد لميزانه وصنجاته ؛ فإن الخطأ فى الرأى أعظم ضرراً من الخطأ فى الوزن . وألا يجادل ويبحث فى الأوقات التى يتغير فيها مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال ، لأن المزاج إذا زاد على حد الاعتدال فى الحرارة ، كان معه العجلة وقلة التوقف وعدم الصبر وسرعة الضجر ، وإذا زاد فى البرودة على حد الاعتدال أورث السهو والبلادة وقلة الفطنة وإبطاء الفهم ؛ وقد قال جالينوس : إن مزاج النفس تابع لمزاج البدن .

---

(١) سورة لقمان .

(٢) سورة ص .

(٣) سورة البقرة .

(٤) سورة المنافقون .

(٥) الحملان جمع حمل ، والحمل بالتحريك الخروف أو هو الجذع من أولاد الضأن فما دونه .

وأن يجتنب العَجَلَة ويأخذ بالتثبت فإن مع العجلة الزلل . وألا يستعمل اللجاج والمَحْك[١] ، فإن العصبيةَ تغلب على مستعملها فتُبعده عن الحق وتصده عنه . وألا يُعْجَب برأيه وما تسوله له نفسه ، حتى يُفْضى بذلك إلى نصحائه ويلقيه إلى أعدائه ، فيَصْدُقونه عن عيوبه ، ويُجادلونه ويقيمون الحجة عليه ، فيعرف مقدار ما فى يديه إذا خولف فيه ، فإن كلَّ مُجْر بخلاء يُسَر[٢] ؛ ومن لم يشعر برأيه ولم يدر أنه فى غَرَر[٣] من لفظه كان بعيداً من نيل شفائه . وأن يتجنب الكذب فى قوله وخبره ؛ لأنه خلاف الحق ، وإنما يريد بالجدال إبانة الحق واتّباعه . وأن يتجنب الضجرَ وقلة الصبر ، لأن عمدة الأمر فى استخراج الغوامض وإثارة المعانى الصبر على التأمل والتفكر ، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : " منزلة الصبر من الإيمان منزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمانَ لمن لا صبرَ له " . [٥٠م]

وأن يكون منصفاً غير مكابر ، لأنه إنما يطلب الإنصاف من خَصمه ويقصده بقوله وحجته ، فإذا طلب الإنصاف بغير الإنصاف فقد طلب الشىء بضده وسلك فيه غير مسلكه . وأن يجتهد فى تعلم اللغة ويتمهر فى العلم بأقسام العبارة فيها ، فإنه انما يتهيأ له بلوغ ما يقتضى الجدلُ بلوغَه من قسمة الإنسان الأشياء إلى ما تنقسم إليه ، وإعطاء كل قسم منها ما يجب له ،

---

(١) المحك المشادة والمنازعة فى الكلام .

(٢) هذا مثل ، وأصله أن رجلا كان له فرس وكان يجرى به فردا ليس معه أحد ، وجعل كلما مر به طائر أجراه تحته أو رأى إعصارا أجراه تحته ؛ فأعجبه ما رأى من سرعته فقال : لو راهنت عليه ! — فنادى قوما فقال : إنى أردت أن أراهن عن فرسى هذا ، فأيكم يرسل معه ؟ فقالوا : إن الحلبة غدا ، فقال : إنى لا أرسله إلا فى خطار ، فراهن عنه . فلما كان الغد أرسله فسُبِق ، فعند ذلك قال : كل مجر فى الخلاء يسر .

(٣) أى فى خداع وإطماع بالباطل .

والاحتراس من اشتراك الأسماء واختلاط المعانى، باللغة والمعرفة بها. وأن يتحرز من مغالطات المخالفين ومشبّهات المموّهين. وأن يحلُم عما يسمع من الأذى والنبز [1] ولا يشغب إن شاغبه خصمه، ولا يردّ عليه إن أربى فى كلامه، بل يستعمل الهدو والوقار، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة فى موضعها، فإنّ ذلك أغلظ على خصمه من السبّ، وربما أراد الخصم باستعمال الشّغب قطعَ خَصمه، وأن يشغل خاطره عن إقامة حجته، فإذا أعرض المجادل عن ذلك ولم يتحرك له طبعه ولم يشغل ذهنه، جمع مع قهر خصمه والاستظهار عليه ظهورَ حلمه للناس ومعرفة الحضور بوقاره ونقص خصمه وخِفّته. وأن يتجنب الجدال فى المواضع التى يكثر فيها التعصّب لخصمه، فإنه لايعدَم فيها أحد شيئين: إما الغيظ فتقصُر قريحته، وإمّا الحَصَر فيعيا بُحجته. وألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به وإن كان صغير المحلّ فى الجدل، فقد يجود أن يقع لمن لا يؤبه له الخاطر الذى لا يقع لمن هو فوقه فى الصناعة. وقد أوصى القدماء بالاحتراس من العدو وألا يُستصغرَ صغيرُ منه، والخصم عدوّ، لأنه يجاهدك بلسانه، وهو أقطع سيفيه كما قال أردشير، وقد قال حسان بن ثابت:

[٥١] لسانى وسيفى صارمانِ كلاهما ... ويَبلُغُ مالا يبلغ السَّيفُ مِذْوَدِى [2]

وأن يصرف همّته إلى حفظ النُكت التى تمر فى كلام خصمه، مما ينبنى منها مقدّماته وينتج منها نتائجه، ويصحح ذلك فى نفسه. ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه، فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج

(١) مصدر نبز ينبز، من باب ضرب، وهو اللمز وتلقيب الناس بما يكرهون.

(٢) المذود: كثير اللسان.

إليه منه . وألا يكلم خَصْمه وهو مُقبل على غيره أو مستشهدٌ بمن حضر على قوله . فإن ذلك سوء عشرة وقلة علم بأدب الجدل ، وظهور حاجة إلى معونة من حضر إليه . وألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله ، ولا يبادر بالجواب قبل تدبُّره واستعمال الروية فيه . وأن يعلم بعد هذا أنه لا يعدّ فى المجادلين الحُذّاق حتى يكون ، بحسن بديهته ، وجودة عارضته ، وحلاوة منطقه — قادرًا على تصوير الحق فى صورة الباطل ، والباطل فى صورة الحق متى شرع فى ذلك ، وإقامة كل واحد منهما فى النفوس مُقام صاحبه فقد وصف الشاعر بعض الجدليين بذلك فقال :

يَسُرُّك مظلومًا ويُرضيك ظالمًا ويحمل إن حَمَّلته كل مَغرمِ

وقال آخر :

ألا ربّ خصمٍ ذى بيانٍ علوته وإن كان ألوى [1] يغلب الحقَّ باطلُه

وليستشعر مع هذا أن الأنفة من الانقياد للحق عجز ، وأن الاعتراف به والبخوع [2] له عز، فلا يمتنع من قبول الحق إذا وضح له. ولا يكونن قصده فى الجدل ألا يُقطع ، فإن من كان فى ذلك غرضه لم يزل فى تنقُّل من مذاهبه وتلون فى دينه . وإنما ينبغى له أن يعتقد من المذاهب ما قام البرهان عليه إن كان مما يقوم عليه برهان ، أو وضحت الحجة المقنعة فيه إن كان مما لا يوجد عليه برهان ، ويناضل عن ذلك من ناضله ، ويجادل من جادله فإن وقع عليه من هو أحسن عارضة منه وألحنُ بحجته ، وقصَّر

(١) أى جدل شديد الخصومة .

(٢) بخع بالحق أقر به .

[٥٠١م] هو عن عبارته فى إيضاح حقه ، لم يتصور له الحق الذى قام فى نفسه بصورة الباطل إذ هو قصر عن حجته . وألا يسحَره بيان خصمه ، فيظن أن حقَّه بَطَلَ لما انقطع هو عن الزيادة عليه ، بل يدع الكلام فى الوقت إذا وقف عليه ، ويعاود النظر بعد الفكر والتأمل ، فإنه لا يعدَم من نفسه ، إذا استنجدها ولاذ بها ، مخرجا مما قد نزل به إن شاء الله .

وليعلم مع هذا أن الانقطاع ليس بالسكوت فقط والتقصير عن الجواب ، لكن المكابرة ، وبحد الصورة ، والخروج عن حد الإنصاف إلى اللجاجة ، والتنقل من مذهب إلى مذهب وعلة إلى علة ، كله انقطاع ؛ وهو أقبح عند ذوى العقول من السكوت ؛ وقد قال الشاعر :

وإذا تنقَّلَ فى الجواب مُجَادِلٌ   دلّ العقول على انقطاع حاضر

واعلم أن السائل أشد استهتارا[١] واستظهارا من المجيب ، لأنّ له أن يُروِّى فى المسألة قبل إطلاقها ؛ والمجيب فى غفلة عما يريده السائل ، فليس ينبغى للمجيب أن يأذن فى السؤال إلا بعد أن يعلم فى أى معنى هو ، فإن أحس من نفسه القوة على الجدل فيه ، وإلا لم يأذن . فإذا أذن فقد تضمَّنَ الجواب[٢] ، فإن لم يُجب فقد عجز . وإن أجاب فلم يُقنع أو وقف الكلام عليه فلم يُرَدِّدْ ولم يرجع إلى قول خصمه ، فقد انقطع . وإذا استأذن السائل فأذن له فلم يسأل ، فقد عجز ، وإن تبرع عليه بالإذن من غير أن يستأذن ، فإنه لم ينسب إلى عجز ولا انقطاع ، لأنه مخير فى ذلك . والإقناع

---

(١) عدم المبالاة . ورجل مستهتر ؛ بصيغة اسم المفعول ؛ لا يبالى ما قيل فيه أو قيل له .

(٢) أى تكفل به والتزمه .

الجواب الذى يوجب على السائل القبول ، فإن لم يقبل ولم يردّ فقد انقطع، وإن مال المجيب نحو السائل ولم يكن ذلك اعتقاده ، فقد حاجز خوفا من الانقطاع . وكذلك إن ادعى أن الجواب قد أقنعه ، ثم لم يرجع إليه ويعتقده فقد حاجز خوف الانقطاع . وإذا أقنع المجيب السائل فقد زال عنه ما انعقد [٥٢] عليه من تضمن الجواب ، والتقصير من السائل والمجيب دون إظهار الحجة فى تحقيق ما تجادلا فيه وإبطاله من حيث تُقِرُّ به النفس وإن جحده اللسان ؛ إما من الذى قَصَّر عن الزيادة ، أو من الذى نَكَل عن الجواب، والفُلْج فى الجَدَل إظهار الحجة التى تقنع ، والغالب هو المُظهِر لذلك .

ثم إن للمتكلمين من أهل هذه اللغة أوضاعا ليست فى كلام غيرهم ، مثل : الكيفيّة (١) والكمّية (٢) ، والمائية (٣) ، والكُمُون (٤) ، والتولد (٥) ، والجزء (٦) ، والطّفرة (٧) ، وأشباه ذلك . فمتى كلم به غيرهم كان المتكلم مخطئاً ومن الصواب بعيدا ، ومتى خرج عنها فى خطابهم كان فى الصناعة مقصراً . وكذلك للمتقدّمين من الفلاسفة والمنطقيين أوضاع متى استُعملت مع متكلمى أهل هذا الدهر وهذه اللغة كان المستعمل لها ظالماً وأشبه من كلم العامة بكلام الخاصة ، والحاضرة بغريب أهل البادية . فمن ألفاظهم :

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) و (٦) و (٧) — الكيفية عندهم ما يجاب به عن السؤال بـ كيف ؛ والمراد بها هيئة الشىء ، والكمية مقدار الشىء أو ما يجاب به عن السؤال بـ "كم هو؟" . والمائية أو الماهية معناها حقيقة الشىء أو ما يجاب به عن السؤال بـ "ما هو" . والكمون أن يكون بعض الأشياء كامنا فى بعض آخر ككمون النار فى الحجر . والتولد نشوء الأشياء بعضها من بعض . والجزء ما ينقسم إليه الجسم ؛ ولهم فى الجزء الذى لا يتجزأ كلام كثير ؛ فمنهم من يقول به ومنهم من يبطله . والطفرة عندهم أن المارّ على سطح الجسم ينتقل من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المارّ ولا مرّ عليها ولا حاذاها ولا حل فيها ، فهذا هو الطفرة ، ولهم فى إمكانها واستحالتها كلام كثير .

السولوجسموسُ ، والهيولى ، والقاطاغورياس ، وأشباه ذلك مما إذا خاطبنا به متكلمينا أوردنا على أسماعهم ما لا يفهمونه إلا بعد أن نُفَسّره ، وكان ذلك عيًّا وسوء عبارة ووضعاً للأشياء فى غير موضعها ؛ ومتى اضطرتنا حال إلى أن نكلمهم بهذه الأشياء ، عَبّرنا لهم عن معانيها بألفاظ قد عهدوها ، فقلنا فى مكان السولوجسموس "القرينة" ، وفى موضع الهيولى "المادة" وفى موضع القاطاغورياس "المقولات" ، وكذلك ما أشبهه من ألفاظ الفلاسفة .

وقد أتى فى شعر من لابس الكلام والجدل وعاشر أهلها من ألفاظ المتكلمين ما استُطرف ، لأنه خُوطب به من يعلمه وكُلِّم به من يفهمه ؛ فمن ذلك قول أبى نُوَاس :

تأمَّلُ العينُ منها محاسنًا ليس تَنفَدْ

وبعضها قد تناهى وبعضها يتــولّد [١]

وقوله [٢] :

[٥٢م] تركتَ منّى [٣] قليلا من القليل أقلا

يكاد لا يتجزا أقلّ فى اللفظ من لا

---

(١) فى الأصل " يتزيد " غير أن رواية " البيان والتبيين " هى المناسبة للمقام .

(٢) وبهامش الأصل : وقبله :

" يا عاقد القلب منى هلا تذكرت حلا ؟ "

(٣) وفى " البيان والتبيين " : " قلبى " .

وقول النظّام (١) :

أُفرِغ من نور سمائىٍّ مصوَّرُ فى جسم إنسىٍّ
وافتقر الحسن إلى حسنه بجَلّ عن تحديد كيفىٍّ

فأما مخاطبة من لا يلابس الكلام ويعرف أوضاع أهله بألفاظ المتكلمين وأوضاع الجدليين ، فهو جهل من قائله وخطأ من فاعله ؛ ويلحق من ركبه من سوء البناء ما لحق من قال فى بعض خطبه فى دار الخلافة : " ثم إن الله بعد أن سوى الخلق وأنشاهم ، ومكّن لهم لاشاهم " . وكما لحق الآخرين خطب فقال : " وأخرجه الله من باب اللَّيْسِيَّة إلى باب الأَيْسِيَة " (٢) ، وعلى أن العوامّ والطغام ومن لا علم له بالكلام ، إذا سمعوا ألفاظاً لم يعهدوها ولم يقفوا على معانيها ، ربما اعتقدوا فى قائلها الكفر واستحلوا دمه ، ولذلك شهد بعض سفلة العوامّ على الخليل وأصحابه بالزندقة لما سمعوهم يذكرون أجناس العروض ويُقطِّعون الشعر ، فورد عليه من ذلك ما لم يفهمه ، فظن أنه زندقة (٣) ؛ فقال الخليل فيه :

---

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام . كان أحد فرسان النظر والكلام على مذهب المعتزلة . وله فى ذلك تصانيف عدة . وكان أيضا متأدبا ؛ وله شعر رقيق المعانى على طريقة المتكلمين . نشأ بالبصرة واشتهر بها غير أنه قضى أواخر حياته فى بغداد . توفى حوالى عام ٢٢٥ هـ .

(٢) المراد بالليسية نفى الصفات عن الله تعالى ، وبالأيسية إثباتها له وهما من ألفاظ المتكلمين .

(٣) قال ابن خلكان : " ويقال إن الخليل كان له ولد متخلف فدخل على أبيه يوما فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ؛ فخرج إلى الناس " وقال : " إن أبى قد جن " فدخلوا عليه وأخبروه بما قال ابنه فقال ذلك البيتين المذكورين مخاطبا له بهما .

لو كنتَ تعلم ما أقولُ عذرتَنى — أو كنتُ أجهلُ ماتقولُ[1] عذلتكا

لكن جهلتَ مقالتى فسببتنى — وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرتكا

وهذا ما فى باب الجدل وأدب المجادل ، وفيه بلاغ للمميز العاقل إن شاء الله .

باب فيه الحديث

وأما الحديث ، فهو ما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم ، ومناقلاتهم ، وله وجوه كثيرة ، فمنها الجدّ والهزل ، والسخيف والجزل ، والحسن والقبيح ، والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب ، والصدق والكذب والنافع والضار ، والحق والباطل ، والناقص والتام ، والمردود والمقبول ، [٥٢] والمهم والفضول ، والبليغ والعيّ .

فأما الجد ، فإنه كل كلام أوجبه الرأى وصدر عنه ، وقصد به قائله ووضعه موضعه ، وكان مما تدعو الحاجة إليه ، وباستعمال ذلك وبالإمساك عما سواه أوصت الحكماء ، فقالوا : " مَنْ علم أن كلامَه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه " وقالوا : " مغبونٌ من مضى عمره فى غير ما خُلق له " . وقال الله تعالى : " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ "[2] ووصف نبيّه فقال : " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى "[3]

---

(١) فى الأصل : " ما أقول " .

(٢) سورة المؤمنون .

(٣) سورة النجم .

وأما الهزل ، فما صدر عن الهوى . والناس فى استعماله على ضربين . أما الحكماء والعلماء ، فاستعملوه فى أوقات كلال أذهانهم وتعب أفكارهم ليستجمّوا به أنفسهم ، ويستدعوا به نشاطهم : ويروحوا به عن قلوبهم خوفا من ملالتها وكلالتها ، وأمروا بذلك فقالوا : " روِّحُوا القلوبَ تعِ الذكر " . وقالوا : " روِّحوا عن القلوب ، فان لها سآمةً كسآمة الأبدانِ" ومن قصد هـذا بالهزل فالجِـدّ أراد ، لأنه قصد المنفعة وما يوجبه الرأى فى سياسة عقله ونفسه ، وإجمام فكره وقلبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً . وقال عمر رضى الله عنه فى أمير المؤمنين رحمة الله عليه : "هو والله لها لولا دُعابةٌ فيه "[١] .

وقال الشعبيُّ[٢] "وصلت بالعلم ونِلْت بالمُلَح" وذلك لما عليه النفوس من استثقال الحق والجد ، واستخفاف اللهو والهزل .

وأما السفهاء والجهّال فاستعملوه للخلاعة والمجون ومتابعة الهوى ، وذلك المذموم الذى قد عاب الله مستعمله ومدح المعرضَ عنه ، فقال فيمن عابه : " وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا "[٣] وقال : " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا "[٤]

---

(١) الضمير فى قوله " لها " يعود إلى الخلافة .

(٢) هو أبو عامر الشعبي ؛ كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ؛ وخاصة علم المغازى . استسفره عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم فأثنى ملك الروم عليه لغزارة علمه ورجاحة عقله . وكان مزاحا : يحكى أن رجلا دخل عليه وهو مع امرأته فى داره فقال : أيكما الشعبي ؟ فقال : هذه ! توفى بالكوفة عام ١٠٥ هـ .

(٣) سورة الجمعة .

(٤) سورة لقمان .

وقال فيمن مدحه بالإعراض عنه : " وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ "[١] وقال فى موضع آخر : " وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً " [٢] وقد أوصت العلماء بتجنب هذا الفن من الهزل فقالوا : " إياكَ والمزاحَ فإنه يجرئُ عليك السَّفِلة " وقالوا : " المِزاحُ السِّبابُ الأصغر " وقال أمير المؤمنين رضى الله عنه : " مَنْ أكثر من شيء عُرِفَ به ، ومن كثر ضحكُه قلَّت هيبتُه ، ومَنْ مَزَحَ استُخِفَّ به " .

وأما السخيف من الكلام ، فهو كلام الرعاع والعوام الذين لم يتأدَّبوا ولم يستمعوا كلام الأدباء ، ولا خالطوا الفصحاء ، وذلك مَعيب عند ذوى العقول ، لا يرضاه لنفسه إلا مائق[٣] جهول. إلا أن الحكماء ربما استعملوه فى خطاب من لا يعرف غيره طلباً لإفهامه ، كما أنه ربما تكلف الإنسان لمن لا يحسن العربية[٤] بعض رطانة[٥] الأعاجم ليُفهمه ، فإذا جرى استعمال اللفظ السخيف هذا المجرى ، وغُزِى به هذا المغزى ، كان جائزاً ، وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يُستعمل فيه غيره ، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء ؛ فإنه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوه ، خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند

(١) سورة القصص .

(٢) سورة الفرقان .

(٣) المائق الأحمق الغبى .

(٤) فى الأصل : لمن لا يحسن بالعربية .

(٥) الرطانة التكلم بغير العربية

مستعملها ؛ وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها ، وقعت موقعها وبلغت غاية ما يريد بها ، ولم يكن على حاكيها عيب فى سخافة لفظها .

وأما الجزل من الكلام ، فهو كلام الخاصة والعلماء ، والعرب الفصحاء ، والكتّاب والأدباء ، الذى قد تقدم وصفه فى الشعر والخطابة . وليس شىء أصونَ على جزالة الكلام وخروجه عن تحريف ألفاظ العوام من مجالسة الأدباء ومعاشرة الخطباء وحفظ أشعار العرب ومناقلاتهم ، [٥٤] والمختار من رسائل المولدين الأدباء ومكاتباتهم . ولذلك كانت ملوك بنى أمية يخرجون أولادهم إلى البوادى ، لينشئوهم على الفصاحة وجزالة اللفظ ؛ وله أيضا علّم الناس أولادهم الرسائل ، ورووهم أشعار القدماء ، وحفظوهم القرآن ، وأمروهم بتجويده [(١)] وأمروهم بالقراءة والإنشاد ليعتادوا الكلام الجزل ، وتنفتق لهواتهم [(٢)] وتذل [(٣)] به ألسنهم ، وتتشكل بتلك الأشكال ألفاظهم ، فإن التَّخَلُّقَ يأتى دونه الخُلُقُ ؛ والعادة كالطبيعة . ولا شىء أفسد للكلام ، ولا أضرّ على المتكلم ، ولا أعون على سخافة اللفظ من معاشرة أضداد من ذكرنا وطول ملابستهم واستماع قولهم . فينبغى لمن أراد تجنب الكلام السخيف ولزوم الجزل الشريف ، أن يتّقى معاشرة من يُفسد بمعاشرته بيانه ؛ كما ينبغى أن يلزم معاشرة من تصلح معاشرته لسانه .

وأما البليغ ، فقد ذكرناه حين وصفنا البلاغة ما هى [(٤)] ، وأتينا بأشياء مما حضرنا ذكره من القول البليغ الموجز ، وأغنى ذلك عن إعادته .

---

(١) فى الأصل : "بتحقيقه" .

(٢) واحدتها لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق .

(٣) تذل : تنقاد ، وتسلس . وفى الأصل : "تدل" بالدال المهملة .

(٤) انظر ص ٧٦ و ٧٧ من هذا الكتاب .

والعِىّ ضد البلاغة ، وهو مذموم من الرجال ، محمود فى النساء ، لأن العِىّ والحَصَر يجرى منهن مجرى الحياء والخفر[١] . لذلك قال امرؤ القيس :

فَتُورُ القيامِ قطيعُ الكلا م تفترّ عن ذى غروبٍ خَصِرْ[٢]

وقال آخر :

ليس يُستحسن فى وصف الهوى عاشقٌ يُحسنُ تأليفَ الحُجَجْ

وقد يستحسن أيضًا الحَصَر والعِىُّ فى المسألة ، وعند وصف الفاقة والخلّة ، لأنهما يدلان على كرم الطبع ، والأنفة من حال المسألة ، والتصوّن[٣] عن ذكر الخَلّة . وقد مدح الله قومًا بمثل هذا فقال : "يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا"[٤] .

وأما الحسن من الكلام ، فهو كل ما كان من معالى الأمور وفى محاسنها ، [٥٤م] وأحسنه الدعاء إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقد قال الله عز وجل : "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

---

(١) الخفر شدة الحياء .

(٢) قوله فتور القيام أى متراخية ليست بوثابة فى قيامها ، وقطيع الكلام أى قليله . وتفتر أى تبسم فتبدى عن هذا الثغر ولا تضحك ضحكا شديدا . والغروب ماء الأسنان وحدتها ؛ وخصر بارد .

(٣) التصون والتصاون صيانة العرض .

(٤) سورة البقرة .

ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ "(١) وقال : " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ "(٢) ثم يتلوه كل ما كان من مكارم الأخلاق ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَكُم " وكل ما كان من دعاء الى بر ، وتعطف ، وإصلاح ، وتألف ، وخير يُجتلب ، وشر يُجتنب ، فهو من حَسَن الكلام وجميله ، ومما يستعمله أهل العقل والحكمة ويثابرون عليه ولا يرون تركه ولا السكوت عليه ؛ لأن ترك استعمال الحسن قبيح ورأى من أهمله غير صحيح .

والقبيح من الكلام ، ما كان فى سَفْساف(٣) الأمور وأراذلها : كالنميمة والغِيبة ، والسِّعاية ، والكذب ، وإذاعة السر ، والمكر ، والخديعة — فكل ذلك قبيح لأنه من مذموم الأخلاق ومعيب الأفعال . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب معالىَ الأمور ويكره سَفْسافها " وذم الله النميمة فقال : " وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ "(٤) وقال فى الغيبة : " وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا "(٥) وقال فى الكذب : " وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ "(٦) وقال فى السعاية : " لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

---

(١) سورة الزمر .

(٢) سورة فصلت .

(٣) السفساف الردىء من كل شىء ، والأمر الحقير .

(٤) سورة القلم .

(٥) سورة الحجرات .

(٦) سورة البقرة .

سَمَّاعُونَ لَهُمْ" (١) وقال فى النفاق : "إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا"(٢). وقال فى المكر : "أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ"(٣).

[٥٥] وقال فى إذاعة السر : "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ" (٤) وقال فى الخديعة : "يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"(٥). وإذا أردت أن تنفى عن نفسك وقولك القبيح فانظر ما استقبحته من فعل غيرك وقوله فتجنبه فإنه القبيح، وما استحسنته منهما فاتبعه فإنه الحسن. ولا تسامح نفسك بأن تستحسن منها ما تستقبحه من غيرك، فقد قال الشاعر :

وابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

وأما الفصيح من الكلام فهو ما وافق لغة العرب، ولم يخرج عما عليه أهل الأدب، ولتصحيح ذلك وُضِع النحو، ولجمعه وُضعت الكتب فى اللغة وذكر المستعمل منها، والشاذ والمهمل. وحق من نشأ فى العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم؛ ولا يخرج عن جملة ألفاظهم، ولا يَقنع من نفسه بمخالفتهم فيُخَطِّئوه ويُلَحِّنوه.

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة النساء.
(٣) سورة النحل.
(٤) سورة النساء.
(٥) سورة البقرة.

واللحن ما خالف اللغة العربية ، وخرج عن استعمال أهلها وما بنى عليه إعرابها ، وهو معيب عند الأدباء فى الجملة . وعلى من يأخذ نفسه بالإعراب ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب . ويروى أن عمر رضى الله عنه كان يضرب على اللحن . فأما العرب فاذا لحن الواحد منهم لقربه من الحاضرة ونزوله على طريق السابلة [1] ، سقطت عند أهل اللغة منزلته ، ودُفعت ورُفضت لغته . وإنما يصح الإعراب لأحد رجلين : إما أعرابىٌّ بدوى قد نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة والإصابة ، فيتكلم على حسب عادته وسجيته ، ومتى خوطب باللحن لم يفهمه ؛ مثل ما يحكى عن رجل قال له بعض الأعراب قولا ، فقال له الرجل : " كيف أهلِك ؟ " فقال له الأعرابى : " قتلا بالسيف إن شاء الله ! " ، فظن الأعرابى أنه إنما سأله كيف يموت ولو قال له : " كيف أهلُك ؟ " لأجابه بجوابه . ويروى أن الوليد [2] قال لرجل : "مَنْ خَتَنَك ؟ " قال : " يهودى ! " فضحك الوليد منه ، فقال : " لعلك أردت من خَتَنُك [3] فهو فلان بن فلان " .

[٥٥م]

وإما للمولّد الذى قد تأدب ونظر فى النحو واللغة وأخذ بهما نفسه ومرّن عليهما لسانه ، حتى صار ذلك عادة له . فأما لغيرهما فليس يصح إعراب . وربما اغتفر فى دهرنا هذا اللحن والخطأ للإنسان فى كلامه لكثرة اللحن فى الناس ، وأنه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجمَ والأقباط وسائر الأجناس . فأما فى الكتاب فغير مغتفر له ذلك ؛ لأن الطرف يتكرر نظره فيه ، والروية تجول فى إصلاحه ، وليس كمثل الكلام الذى يجرى أكثره على غير روية ولا فكرة .

(١) هم المختلفون على الطريق جيئة وذهابا .
(٢) هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى المشهور ، وكان لحانا .
(٣) الختن محركة الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ .

وأما المواضع التي يجب أن يستعمل اللحن فيها ويُتَعمد له في أمثالها ويكون ذلك مما يوجبه الرأي، فهو عند الرؤساء الذين يلحنون، والملوك الذين لا يعرّبون. فمن الرأي لذي العقل والحُنْكة (١) والحكمة والتجربة ألا يُعرب بين أيديهم، وأن يَدخُل في اللحن مَدخلَهم، ولا يُريهم أن له فضلاً عليهم، فإن الرئيس والملك لا يحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه، ومتى رأى أحداً منهم قد فَضَله في حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه. وفي عداوة الرؤساء والملوك لمن تحت أيديهم البوار. ومن ذلك ما يحكى عن بعض من تكلم في مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون فلحن فعوتب على ذلك فقال: "لو كان الإعراب فضلا لكان أمير المؤمنين إليه أسبق". وسأل الوليد رجلا عن سِنيه فقال: "كم سِنيك؟" فقال: "أربعين"، قال: "لَحنت"، فقال: "إنما أتبعك يا أمير المؤمنين"، قال "فكم سنوك؟"، قال "أربعون". وقد يُستملح اللحنُ في الجواري والإماء وذوات الحداثة من النساء، لأنه يجري مجرى الغرارة (٢) منهن وقلة التجربة. وفي ذلك يقول الشاعر: [٥٦]

وحديث ألذه هو مما تشتهيه النفوس يُوزَنُ وزنا

مَنطقٌ صائبٌ وتلحَنُ أحيا ناً وخيرُ الحديث ما كان لحنا

ولست أدري كيف صار اللحن عند هذا الشاعر خير الحديث، وأظنه أراد أملح الحديث، فاضطره الوزن إلى أن جعل في موضع ذلك "خير الحديث". وقد تأول له بعض الناس فقال: إنما أراد باللحن الفطنة

(١) الحنكة: الخبرة.

(٢) السذاجة.

للمعانى ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم لتتحاكمون إلى ولعل أحدكم ألحنُ بحُجّته " ، يريد : أفطن لها ، وما أتى فى هذا التأويل بشىء لأن قوله "منطق صائب" قد أتى على إصابة المعنى فما [1] وجهُ فطنتها لذلك أحياناً ؟

وأما الخطأ والصواب ، فإن الصواب كل ما قصدت به شيئاً فأصبت المقصد فيه ولم تعدل عنه . ومنه قيل "سهم صائب"، " وأصبت الغرض" وصواب القول من ذلك مأخوذ . ويقال : " قول صائب " من صاب يصوب وهو صائب ، مثل قال يقول وهو قائل . و " وقول مصيب"، من أصبت فى القول أصيب إصابة وأنا مُصيب والقول مصيب أيضا ؛ كما تقول أردت الشىء أريده إرادة وأنا مريد . والقول المصيب هو مما أعطى المفعولُ فيه اسمَ الفاعل ، مثل " راحلة " وإنما هى مرحولة ، و " عيشة راضية " وإنما هى مرضية . وقد مدح الله عز وجل الصواب فقال : " يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا " [2] .

ومن الصواب أن يعرف أوقات الكلام ، وأوقات السكوت ، وأقدار الألفاظ ، وأقدار المعانى ، ومراتب القول أيضاً ، ومراتب المستمعين له ، وحقوق المجالس وحقوق المخاطبات فيها ؛ فيعطى كل شىء من ذلك حقه ، ويضمه إلى شكله ، ويأتيه فى وقته وبحسب ما يوجبه الرأى له ، فإنه متى أتى الإنسان بكلام فى وقته ، أنجحت طَلِبَتُه [3] [٥٦م] وعظمت فى الصواب منزلتُه ؛ ولذلك ترى من له الحاجة إلى الرئيس يرقب

(١) فى الأصل "فما..." .

(٢) سورة النبأ .

(٣) الطلبة ، بكسر اللام ، الحاجة والمطلوب .

لها وقتاً يراه فيه نشيطاً فيكلمه ، لأنه متى كلمه وهو ضيق الصدر أو مشغول ببعض الأمر كان ذلك سبب حرمانه وتعذر قضاء حاجته. وارتقابُ الأوقات التى تصلح للقول وانتهاز الفرصة فيها إذا أمكنت ، من أكثر أسباب الصواب وأوضح طُرُقه. ثم متى سكت عن الكلام فى الأوقات التى يجب أن يتكلم فيها ، لحقه من الضرر بترك انتهاز الفرصة مثل ما يلحقه من ضرر الكلام فى غير وقته. ولذلك قال أمير المؤمنين رضى الله عنه: "انتهزوا الفُرَص فإنها تمر مرّ السحاب".

وللسكوت أوقات هو فيها أمثل من الكلام وأصوب ، فمنها السكوت عن جواب الأحمق والهازل والمتعنت ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وأصمُتُ عن جواب الجهل جُهْدى ... وبعضُ الصمت أبلغ فى الجوابِ

وقال بعضهم : "رب سكوت أبلغ من منطق". ومنها السكوت عن مقابلة السفيه على سَفَهه ، واللئيم على ما ينالك منه ، والتصون عن إجابتهما والحلم عما يبدر منهما ، وقد مدح الله الحلم فقال: "إنَّ إبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ"(١) وسمى نفسه الحليم. وقال الشاعر :

ولم أر مثل الحِلم زيناً لصاحبٍ ... ولا صاحباً للمرء شراً من الجهل

وقال الله عز وجل فى وصف المؤمنين وتنزههم عن مقابلة الجاهلين : "وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً" (٢). وقال : "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ" (٣). وقال : "وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ" (٤).

(١) سورة هود .
(٢) سورة الفرقان .
(٣) سورة القصص .
(٤) سورة الأعراف .

وقال الشاعر :

متاركةُ اللئيم بلا جوابٍ أشد على اللئيم من الجواب

وقال آخر :

وقد أسمع القول الذى كاد كلما إذا ذكرته النفسُ قلبي يُصدَّعُ

فأُبدى لمن أبداه منى بشاشةً وأنى مسرورٌ بما منه أسمع

وما ذاك من عُجْب به غير أنى أرى أن تركَ الشرِّ للشر أقطعُ [٥٧]

والحلم إنما هو عن نظيرك أو من هو دونك. فأما من هو فوقك أو مسلط عليك ، فليس يسمى السكوت عن مقابلته حلماً ، بل هو بباب التقية أشبه ، وبالمداراة أليق ؛ وبذلك أوصى الشاعر حين يقول :

بُنَىّ إذا ما سامكَ الدهرَ قادرٌ عليك فإن الذل أحرى وأحرزُ

ولا تحمَ فى كل الأمور تعززاً فقد يُورث الذلَّ الطويلَ التعزُّزُ

ومما يستحسنه الأدباء ويراه صواباً كثير من العلماء : الحلم عن النظير ومن هو دون النظير ، لأنه يُبين عن فضل الإنسان فى نفسه وترفعه[١] عن مقابلة من جهل[٢] عليه ووضع نفسه لأذيته ، وقد قيل : "من عاجل نفع الحلم ، كثرة أعوان الحليم على الجاهل" ؛ والتقية والمداراة للسلطان والرئيس فى دفع المرهوب من جهتهم واجتذاب المحبوب منهم ؛ ومقابلةُ

(١) فى الأصل ؛ يرفعه

(٢) فى الأصل حاشى إزاء هذا الكلام غير واضح .

من[١] يرى نفسه فوقك ، ويتوهم أن إمساكك عنه خوفا منه ، فيجترئ عليك بحلمك[٢] وسكوتك عنه فيما ينوبك منه . ولذلك قال الله عز وجل : " فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ " [٣] وقال : " وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ " [٤] . وإنما كان الصواب فى مقابلة مَنْ هذه حاله ، لأن فى مقابلته قطعاً لمادة أذيته ، ورَدْعا له عن معاودة مثل فعله ؛ وقد قال الشاعر :

إذا كنتَ عند الحلم تزداد جُرأةً ... علىّ وعند العفو والصفح تجهل[٥]
ردعتك عنى بالتجاهُلِ والخنا[٦] ... فإنهما عندى لمثلك أمثلُ

وقال آخر :

ألَا لا يَجْهَلَن أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

وأما أقدار الألفاظ وأقدار المعانى ، فهو أن يأتى بالمعنى فيما يليق به من اللفظ ، وقد مضى الكلام فيه بما أغنى عن إعادته[٧] . وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له فقد تقدم القول فيه[٨] . وبالله التوفيق .

كمل " البيان " بحمد الله تعالى وحسن عونه
والصلاة التامة على سيدنا محمد نبيه وعبده

---

(١) أى مواجهه وأخذه بالشدة .
(٢) فى الأصل : « بحلمك عنه ويكون سكوتك عنه فيما ينوبك منه » .
(٣) سورة البقرة .
(٤) سورة الشورى .
(٥) تتكبر وتتجبر .
(٦) الخنا من الكلام أفحشه .
(٧) انظر الصفحة ١٦٣ من هذا الكتاب .
(٨) انظر الصفحات ١٠٨ — ١١٠ من هذا الكتاب .

دليل الكتاب

(ا)

(ب)

١٤

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)



فهرس الموضوعات

صفحة

(*) وضعت أرقام هذا الفصل والذى يليه أسفل الصفحات تمييزا لها عن أرقام متن الكتاب .

صفحة